الفصل الخامس

الصحفيون ...
أبطال الحقيقة

obeikan.com

obeikan.com

فى العالم المملوء بالأخطاء
مطالب وحدك إلا تخطىء
لأن جسمك النحيل
لو مرة أسرع أو ابطأ
هوى ..وغطى الأرض اشلاء

أحمد عبد المعطى حجازى

١ - الموت والحقيقة

يقول الصديق العزيز الكاتب العراقى هادى جلو مرعى فى مقال رثاء لنقيب الصحفيين السابق شهاب التميمى الذى توفى بعد محاولة اغتيال ودفن فى منطقة خصصها مجلس محافظة النجف كمقبرة خاصة للصحفيين « كنا نرغب أن ندفن فى مقابر العامة من الناس .. فهذا فأل سوء أن تكون لنا مقبرة خاصة .. فإذا كنا ندفن مع بقية الأموات فهذا يعنى أن موتنا سيكون بأسباب طبيعية أو حوادث لا صلة لها بالقتل .. أما المقابر الخاصة فهى موصولة بأسباب غير طبيعية.. كنا نأمل أن يتوقف النزف وينقطع وألا تكون لنا مقبرة باسمنا .. بؤسنا نحن الصحفيين مازال يدفعنا للسير مكشوفين دون ضمانات بالأمن وحتى الصحفيون ذوى الرتب العالية لا أحد يحميهم .. أهل الصحافة وحملة الأقلام مشاريع موت قادم ومستمر والحكومة عاجزة إلا عن بيانات الاستنكار».

في بلد مثل العراق، اعتاد المراسلون والصحفيون أن يكون يومهم الاعتيادي مليئا بالمخاطر والأحداث، ومنذ دخول القوات الأمريكية إلى قلب بغداد عام ٢٠٠٣ بات الإعلاميون أحد أهم الأهداف لكافة الجهات التى ما زال الكثير منها مجهولاً بالنسبة للقائمين على التحقيق فى حوادث الاختطاف والقتل والاختفاء القسرى».. بينما تكتفى المؤسسات الإعلامية بتعليق أسماء وصور من سقط من صحفييها على أبوابها منذ بداية زمن المذبحة .

ولا تتوقف معاناة الصحفيين عند القتل والاختطاف والاختفاء المريب فقط انما تمتد المعاناة لكل من يعمل بالصحافة والإعلام لتشمل ملابسات وأجواء العمل خاصة تنصل المسؤولين أو السياسيين من تصريحاتهم في اليوم التالي من إعلان التصريح بعدما يرون أن التصريح كان له تأثير سلبي على جهة ما أو أن أحد المسؤولين وجه إليه انتقادا على هذا التصريح وهو ما يجعل الإعلامى والصحفى فريسة للمخاطر بدءا من القتل الخطأ أو العمد والاختطاف بالإضافة إلى التنصل من التصريحات،

لأنه هدف سائغ وسهل لأي طرف في العراق بالإضافة إلى عدم وجود قانون ينظم العمل الصحفى أو يحمى الصحفيين والإعلاميين فى حالة حدوث مكروه.

ولعل من المخاطر التى تحيط بالإعلاميين والصحفيين العراقيين هو استباحة الميدان الإعلامى من جانب فئات لا علاقة لها بهذا العمل ولا تجيد التعامل مع طبيعة الواقع ولا تقيم وزنا للتقاليد المهنية والأخلاقية العريقة التى يجب أن يتم الحفاظ عليها باعتبار العراق من البلدان التى تمتلك تراثا ثقافيا وتاريخيا عريقا وعدم الالتزام بمعايير الانتماء إلى نقابة الصحفيين العريقة التى كان يجلس على مقعد النقيب فيها الشاعر العظيم محمد مهدى الجواهرى وهو ما جعل هوية النقابة تفقد الكثير من احترامها بعد أن بات يحملها أشخاص لا علاقة لهم بالمهنة ولا يملكون أى مقومات أو أدوات تتيح لهم الانتماء للنقابة العريقة .

ولعل أهم ما يميز المشهد الإعلامى العراقى هو أن من يتصدى للدفاع عن الصحفيين ويلبى احتياجاتهم المهنية ويساعدهم وقت الحاجة هى منظمات مجتمع مدنى مهتمة بالشأن الإعلامى وعلى رأسها مرصد الحريات الصحفية الذى يتميز بعناصره ورموزه من أصحاب المهنية العالية ويخضع لنظام صارم إداريا وماليا ومعرفيا .

تتخذ الأرقام و الأسماء سمة الإحاطة الكاملة بالحجم الحقيقي للمأساة التي يعيشها الصحفيون العراقيون في ظل الأوضاع الأمنية المتردية ، وفي ظل التراجع الملحوظ في مستوى الحماية التي يتوجب توفيرها للعاملين في هذا الحقل الحيوي ، الذي يسهم في الكشف عن التجاوزات والفظائع التي ترتكب بحق الإنسان .

وقد أصدر مرصد الحريات الصحفية إحصائية هامة حول أعداد القتلى من الصحفيين والإعلاميين العراقيين تثبت دون أي لبس بأن دماء هؤلاء الأبطال توزعت على عدة جهات منها ١٨٦ صحفياً قتلوا على أيدي مسلحين مجهولين أو مليشيات ٣٥ آخرين لقوا حتفهم أثناء تواجدهم في أماكن حدثت فيها انفجارات نفذها مجهولون ٢٢ صحفيا قتلوا بنيران القوات الأمريكية صحفيان قتلا بنيران القوات العراقية

ويشير المرصد فى تقريره إلى ان الصحفي العراقي مستهدف من كل الأطراف المتنازعة دون استثناء ، وأن مهنة الصحافة باتت موضوع انتهاك يومي ، دون ادنى اعتبار للدور المهني والإنساني الذي تقدمه ، وأن (سلطتها الرابعة) التي مارستها في خضم الأحداث على مدار السنوات الثلاث الماضية ، تواجه الآن انتقاما ممن يضيقون ذرعا بحق الإنسان - داخل العراق وخارجه - في معرفة الحقيقة ، وممن يخرقون المواثيق والأعراف والمحرمات ، إذا وجدوا أن هذا الخرق قد يخدم مصالحهم .

بناء على ما تقدم ، فان سؤالا من نوع ما من المسؤول عن كل هذا ؟ يبدو مشروعا بل واجبا دوليا وإنسانيا تمليه فظاعة المأساة وأبعادها الإجرامية ، وادعاءات العالم الحر بالحرص على احترام الصحافة والصحفيين .

أما الإجابة على هذا السؤال ، فتتمثل في تحديد الجهات التي يجب أن تتحمل مسؤولية هذا الاستهداف غير المسبوق للعاملين في حقول الصحافة والإعلام ، ونعني هنا ، القوات الأمريكية التي قتلت ٢٢ صحفيا ، والقوات العراقية التي قتلت صحفيين اثنين، إذ من غير المعقول أن تتنصل القوات النظامية من فداحة هذه المسؤولية ، وتقوم بتسجيل بقية الجرائم التي ارتكبت ضد جهات إرهابية أو مسلحين مجهولين لا يمكن الوصول إليهم أو التعرف عليهم، فضلا عن أن أولئك المسلحين ما كانوا ليرتكبوا جرائمهم المدرجة في هذه الإحصائية لو لم تهيأ الأجواء والمناخات السياسية والأمنية التي سمحت لهم بقتل الصحفيين ، عدا من قامت القوات الأمريكية والعراقية النظامية بقتلهم حتى وان كان ذلك قد تم بطريق الخطأ.

ويؤكد مرصد الحريات الصحفية أنه بات من الضروري الآن ، أن يقوم المجتمع الدولي بدوره الفاعل من أجل حماية الصحفيين العراقيين ، عن طريق تشكيل لجنة دولية مستقلة للتحقيق في الانتهاكات اليومية التي يتعرضون لها ، وان تقدم من تثبت مشاركته في هذه الجرائم أيا كانت جنسيته ، إلى المحاكم الدولية المختصة ، وان تبادر القوات الأمريكية والحكومة العراقية ، إلى إجراء تحقيقات واسعة تطال كل من تورطوا في هذه الانتهاكات ، من عسكريين ومسؤولين ومسلحين غير نظاميين، وتقديمهم إلى العدالة ومحاكمتهم ، كذلك اتخاذ كل ما يلزم من إجراءات حمائية تضمن سلامة الصحفيين أثناء أدائهم لدورهم المهني والإنساني .

كنت أتمنى أن تتسع المساحة ويطول الوقت ليحتضن جهد الكتابة عن كل أبطال المهنة الذى استشهدوا فى سبيل الحقيقة أو اختفوا بشكل مريب ولم يظهر لهم أثر أو أصيبوا إصابات قاتلة جعلتهم يترجلون عن صهوة جواد الصحافة لكننى سوف أكتفى بما يلى من قصص كنماذج لأبطال البحث عن الحقيقة فى زمن المذبحة.

٢ - الصديقان

فى أبريل عام ٢٠١٠ بث موقع إلكتروني أمريكي شريطا مصوراً يظهر مقتل أحد عشر مدنيا بينهم الصحفي نمير نور الدين حسين وسائقه سعيد شماغ وإصابة طفلين بنيران مروحية أباتشي تابعة لقوات الاحتلال الأمريكية أثناء قيامها بعملية عسكرية في حي بغداد الجديدة شرق العاصمة بغداد فى عام ٢٠٠٧

وذكر موقع ويكيليكس الإلكتروني أن الشريط سُرب إليه من قبل عدد من الجنود، وقد استهدفت المروحية الأمريكية عدداً من الأشخاص هرعوا لإسعاف أحد الصحفيين المصابين. فيما أوضح متحدث باسم القيادة الوسطى لقوات الاحتلال الأمريكية أن قيادته تنظر في محتوى الشريط للحصول على معلومات إضافية، مشيرا إلى أنه لا علم لها بمحتوى الشريط، في حين لم يصدر أي تعليق رسمي عن وزارة الدفاع الأمريكية.

وقد أكد رئيس تحرير الموقع جوليان أوجونز صدقية الشريط، وقال: إنه واثق من ذلك خصوصا أن الموقع أمضى ثلاثة أشهر في فك الشفرة المتعلقة بمواد ومحتويات هذا الشريط.

وأضاف أوجونز «نحن لدينا مصادر داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية وجهات حكومية أخرى من الذين هم ليسوا مرتاحين من سير الأمور. ففي الوقت الذي لا نستطيع الكشف عن أسماء معينة لكننا نفترض أن المؤسسة العسكرية أعطتنا من بعض المصادر هذا الشريط إضافة إلى مواد أخرى كانت مشفرة ونحن قضينا ثلاثة أشهر لفك الشفرة ونجحنا بذلك».

ولد الصحفي نمير نور الدين في ١٩٨٤/٩/١ في مدينة الموصل الحدباء مركز محافظة نينوى / ٤٠٠ كم شمال بغداد/ واكتسب من والده مهارة التصوير وعشق الكاميرا في عمر مبكر.. وبينما كانت وكالة رويترز للأنباء تبحث عن مصورين متميزين في مدينة الموصل ليعملوا معها على تغطية الأحداث أولا بأول في هذه المدينة الساخنة قادهم بحثهم إلى نمير وهو ما يزال طالبا في معهد الصناعة وسرعان ما أخذ نجم نمير يتألق في عالم التصوير الصحفي حيث انتشرت العديد من صوره المعبرة والمؤثرة وبادرت كبريات الصحف والمجلات الأجنبية إلى نشرها على أغلفة مطبوعاتها..

تتواصل الأحداث سريعا في الموصل لتكشف عن شخصية متميزة للفتى (نمير) ، فهو لم يكن موظفا لدى وكالة أنباء فحسب، بل كان عراقيا محبا لوطنه كارها للاحتلال، لذا سخر كاميرته ومهارته لتصوير انتصارات المقاومة العراقية وتعقب وتتبع وبكل شغف آليات الجيش الأمريكي المحترقة بضربات موجعة.. حينها اكتشف الجيش الأمريكي أنه أمام خصم آخر لا يقل ضراوة ولا تأثيرا عن القاذفة والعبوة الناسفة.. إنه سلاح الكاميرا الصادقة في يد عراقية مخلصة..!

جاء الاختبار الأول الصعب لنمير عام ٢٠٠٥ عندما ساقته قدماه إلى جسر في مدينة الموصل كانت تتدلى من فوقه دبابة أمريكية مشتعلة قد حطمتها وقتلت من فيها قذائف المقاومة وبينما كانت كاميرته تلتقط صور هذه الدبابة إذا به يفاجأ

بجنود أمريكيين ينهالون عليه ضربا بأخمص بنادقهم ويحطمون كاميرته ، رغم أنه كان يحمل ترخيصا وباجا ويلبس ما يشير إلى أنه صحفي يعمل لدى وكالة رويترز.. لكن جنود الجيش الأمريكي لم يكونوا يعترفون بكل هذا خاصة عندما يشاهدون آلياتهم المتطورة تحترق على أيدي العراقيين. تسبب هذا الاعتداء في كسر بوجه نمير، ثم بادرت رويترز لرفع شكوى لدى قيادة الجيش الأمريكي، والذي سارع حينها بالاعتذار وتعويض الوكالة عن الكاميرة التي هشمت، ومنح نمير أيضا مبلغا من المال ليذهب لعلاج الجروح التي تعرض لها.

بعدما شفي نمير من جروحه قررت وكالة رويترز استقدامه إلى بغداد لتبتعد به عن المضايقات الأمريكية في الموصل التى كانت ومازالت من أخطر مناطق العراق ، وتحول نمير في فترة وجيزة إلى أحد أفضل المصورين الصحفيين لدى الوكالة. فقد كان يبحث عن أماكن الحدث الساخنة لينقل منها الصورة والخبر أولا بأول، ولأنه كان أعزباً فقد كان يطلب من زملائه الصحفيين من أصحاب العائلات أن لايغامروا بأنفسهم في المواقع الساخنة والخطرة رفقا بأطفالهم، وكان يعرض دوما أن يذهب هو بدلا عنهم..

فى تلك الأثناء ربطت الصداقة الحميمة بين نمير وسعيد شماغ، تلك الصداقة التي لم تفرقهما على الإطلاق منذ أن التقيا عام ٢٠٠٦ وحتى قضيا نحبهما معاً على أيدي الجيش الأمريكي. وأجمل ما في هذه العلاقة، ووفق مصطلحات العراق (الجديد) التي جاءت بعد الاحتلال، أن نمير كان (سنيا) من الموصل، بينما كان سائقه ومساعده وصديقه الحميم (سعيد شماغ) شيعيا من بغداد. ولأنهما كانا عراقيين قبل كل شيء، فقد جمعهما عمل واحد، ومائدة طعام واحدة، وقتلا في ساعة واحدة، وفوق أرض واحدة، ومن قتلهما هو عدو واحد ، ثم جمعهما مجلس عزاء واحد، وترافقت صورتيهما بعد استشهادهما في جميع وسائل الإعلام.. إنها قصة العراق بأجمعه تختصرها قصة رجلين.. عاشا معا واستشهدا معا..

فى يوم ١٢ يوليو /تموز ٢٠٠٧ تلقت عائلتي نمير وسعيد نبأ استشهادهما.. ويروي نورالدين والد نمير أن القوات الأمريكية تركت جثث الشهداء العراقيين على الأرض ثم غادرت موقع الجريمة، وقام أبناء المنطقة بنقل جثتي الشهيدين بعد أن تم الاتصال بوكالة رويترز وتكشف هذه الحقيقة الخطيرة عن حجم الاستهتار الفاضح لجنود الاحتلال الأمريكي وهم يتعاملون مع أرواح العراقيين بهذا الاحتقار، وحاولت وكالة رويترز أن ترفع دعوى قضائية ضد الجيش الأمريكي داخل الولايات المتحدة، لكن الإدارة الأمريكية وكعادتها بررت ودافعت عن وحشية جنودها وردت الدعوة.. لكن

الإدارة الأمريكية لم تكتف بذلك فحسب، بل أود. ات تهديدات مبطنة إلى عائلات الشهداء أنهم ما لم يكفوا عن مطالبهم بالتحقيق في هذا الأمر فسوف تزداد الأمور تعقيدا ، بعد أن ألصقت تهمة (مساندة الإرهاب) بكل من الشهيدين نمير وسعيد.. !!!

٣ - ضد الرصاص

ثلاث رصاصات بالرأس ورابعة على تخوم الرقبة كانت من نصيب الطفل المشاغب المندهش دائما كلما بلغته وقائع جريمة فساد أو إفساد رغم أن مثل تلك الجرائم صارت من طقوس زمن المذبحة .. عماد العبادي حاولوا إسكاته حتى يوقف هوايته فى البحث عن الحقيقة ونشرها أيا كانت المحاذير أو المخاطر .. كما يقول أصدقاؤنا أن عماد كان يفضل حمل السُلّم بالعرض حتى وإن أعاقه ذلك عن العبور ربما لارتفاع معدل الثقة بالنفس لديه .. ربما لأنه أدرك نهاية الطريق مبكرا وأراد الوصول إليها قبل غيره .. لا أجد إجابات شافية لأننى كلما التقيت به وجدت زيادة فى التحدى يطرح ما يريد قوله بصوت يسمع من به صمم كما يحب، أن يصف نفسه .و يدرك عماد العبادى جيدا أن نهايته الحتمية ربما تكون كنهاية المتنبى الذى وصف نفسه بأنه نظر الأعمى إلى شعره وأسمعت كلماته من به صمم .

جاء عماد العبادى من بلدة يحمل اسمها « عباده» تتبع إداريا ناحية الفهود بقضاء الجبايش وتنظيميا تتبع سوق الشيوخ بمدينة الناصرية مركز محافظة ذى قار التى تبعد حوالى ٣٦٦ كم جنوب شرقى بغداد .. مارس كل فنون العمل الإعلامى صحفيا وكاتبا ومذيعا ومقدم برامج منذ عام ١٩٩٥ حتى استقر به الحال فى فضائية الديار التى يمولها اليد فيصل الياسرى وهى تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية والمصداقية وهو ما جعل عماد يستغل ذلك فى الانطلاق عبر برنامجه « أفكار بلا أسوار» الذى بدأ تقديمه منذ عام ٢٠٠٣ بشكل أسبوعى حيث تناول فى حلقاته التى تجاوزت الثلاثمائة حلقة قضايا حساسة ومهمة وشائكة ومثيرة للجدل .. كان عماد يعلم أنه يقترب من مناطق محظورة فى عالم السياسة والامن لا يقتصر مداها على حدود حلقاته التليفزيونية وإنما يتجاوزها إلى الرأى العام لتصبح حديث الشارع .

واصل عماد تقديم برنامج «أفكار بلا أسوار» على قناة الديار، في تواصل محموم على مدار سنوات ملتهبة دون انقطاع وفي ظل ظروف عمل قاسية مرت بها الصحافة كان يع .. بحرية تامة يعبر عن رأيه في ظل ظروف المحاصرة والمليشيات وشراء الدمم وثقافة الاستبداد والتشكي والتشكيك بالولاءات والانتماءات .

يقول عماد أنه مع اقتراب موعد الانتخابات النيابية فضلت جهات معينة تغييبه عن الساحة حتى لا يثير الزوابع ذات الخطورة على صورتها خاصة بعد سلسلة مقالات كتبها تحمل عناوين مثيرة وكلمات تفوق إطلاق الرصاص منها « ائتلاف المتعة وكذبة وطن وفضيحة فساد لرئيس الوزراء ومسخرة المفسد والأمين وملاحظات على مؤتمر هيئة الاتصالات و٨٠٠ ألف بطانية تحجب الرؤية عن جلال الدين الصغير »وغيرها .. كان عماد يرى أن الصحفيين في العالم الخارجي وفي أوروبا مثلا يبذلون وقتا ومالا وجهودا كبيرة لكي يوثقوا ويثبتوا فضيحة سياسية أو مالية واحدة، وقد يستغرق ذلك أشهرا أو سنوات ولكن بالعراق يكشف الصحفيون في اليوم الواحد العشرات من الفضائح !

لم يكتفى عماد بنافذته عبر قناة الديار وإنما حل ضيفا على قنوات أخرى يدلي برأى أو يقدم ملابسات فضيحة جديدة وفى يوم ٢٢ / ٩ / ٢٠٠٩ حل ضيفا على شاشة قناة الحرة وتحدث كثيراً عن قضايا فساد موجها انتقادات لاذعة للحكومة وآدائها ونهجها كما اعتاد دائما وفى اليوم التالي جاءته الرصاصات الأربعة.

يروى لي عماد أن أحد زملائه ويدعى أحمد الأبيض إتصل به يطلب أن يمر عماد على داره ليأخذ بعض الطلبات الموجهة لوزير الداخلية جواد البولانى حيث كان سيلتقيه مساء ذلك اليوم وعندما وصل إلى باب زميله فى منطقة العرصات عاجله قاتل مأجور أو مجموعة قتلة برصاصات من مسدس كاتم للصوت وغطت الدماء وجهه وجسده المتعب .. مرت صور أطفاله وأمه التى كانت تستعطفه لترك هؤلاء الفاسدين وتقول « عوفهم إنهم كلاب دم » .. مرت عشر دقائق من الدهشة القاتلة ولم يأتى أحد ليرى ماذا حل بالضحية .

تحسس عماد أعضاءه بيد مرتعشة إلا أنها تمكنت من قيادة السيارة والاتصال فورا بزياد العجيلى الذى يدير مع الزميل هادى جلو مرعى مرصد الحريات الصحفية لإبلاغه بما حدث .. هرع بسيارته متجاوزا نقطة التفتيش التى تقف بالقرب منه وشهدت على الجريمة لكنها اكتفت حين رأته يقود السيارة مضرجا بدمائه بالسؤال عن سلامته دون أن تكلف نفسها محاولة إنقاذه أو حتى إيقافه .

دفعته صور أمه وأطفاله إلى محاولة النجاة وقاد السيارة مسافة تزيد على أربعة كيلومترات وهو شبه فاقد للوعى عابراً فى تلك المسافة التى تخترق وسط بغداد حوالى عشر نقاط تفتيش اكتفت بالقول « سلامتك » .. عبر عماد الرصافة / الجزء الشرقى من بغداد/ عبر الجسر الجمهورى فوق نهر دجلة ليصل إلى الكرخ حيث مقر قناة الديار وهى النقطة الوحيدة التى دفعته إرادته للوصول إليها والتوقف

عندها خوفا من تتبع قاتليه له والإجهاز عليه .. وعندما وصل إلى النقطة المحددة كانت كل قواه قد خارت وسقط مغشيا عليه .. حمله فيصل الياسرى صاحب القناة وكان بصحبته جواد الحطاب مدير مكتب قناة العربية بالعراق إلى أقرب مستشفى .

أبلغ الأطباء من اصطحبوه بأن أمره قد انتهى وما هى إلى لحظات ويلفظ أنفاسه الأخيرة إلا أن جواد الحطاب أسرع بالاتصال بأطباء أمريكيين طلبوا نقله إلى مستشفى الكاظميه التى كانت إمكانياتها لا تسمح بإنقاذه وحاولوا نقله إلى قاعدة بلد الجوية التى تبعد عن بغداد حوالى ٨٠ كيلومترا إلا أن الضباب حال دون نقله واضطر الأطباء إلى إجراء عملية جراحية تبعتها عمليات أخرى فى محاولة لاستخراج الرصاص من رأسه ورقبته .. ظل عماد فاقدا للوعى فترة طويلة بعد استخراج رصاصتين فقط حتى يوم ٣ / ١١ حيث جرى نقله بطائرة خاصة إلى ألمانيا وجرى إخراج باقى الرصاصات .

لم يمت عماد بقدرة إلهية رغم الرصاصات الأربعة التى استقرت فى رأسه ورقبته وإنما عاد ليمارس نفس الدور المقدس المشوب بمشاغبات تطال الجميع خاصة الفاسدين والقتلة وحكام زمن المذبحة .. عاد عماد من الموت أكثر قوة وشدة .. يشير إلى رقبته حيث الرصاصة التى كادت أن تقتله ويقول لى المثل المصرى « الرصاصة التى لا تميتنى تقوينى».

٤ - أم البنات

فى عام ٢٠٠٦ بعد أن بدأت مهمتى بالعراق بوقت قصير تعرض اللواء وائق الحمدانى مدير شرطة محافظة نينوى لمحاولة اغتيال أذاعت وسائل الإعلام حينها أنه لقى مصرعه فيها وتضاربت التقارير حول صحة مقتل الرجل وكانت نينوى حينها وتحديدا مدينة الموصل التى تبعد ٤٠٠ كم إلى الشمال من بغداد من أشد مناطق العراق سخونة وما زالت والوصول إلى معلومة تخص الأحداث فيها أمر يكتنفه الكثير من المخاطر بسبب سيطرة المجموعات المسلحة خاصة تنظيم القاعدة على مقدرات الأمور فيها بشكل كامل لدرجة اعتراف وزير الدفاع العراقى حينها بأن الأوضاع فى الموصل أسوأ كثيرا مما تخيله .. وعندما جاءنى اتصال عاجل من المركز الرئيسى لوكالة أنباء الشرق الأوسط بالقاهرة يطلبون توضيح الأمر وإذا كان اللواء الحمدانى قد لقى مصرعه فعلا أم لا شعرت بحيرة بسبب صعوبة الاتصالات وعدم وجود مصدر يؤكد أو ينفى الخبر .. واقترح أحد الزملاء أن أقوم بالاتصال بالزميلة

سحر الحيدرى فهى كما قال بيدها مفاتيح الأحداث والمسئولين وتسعد عندما تقدم مساعدة لأى زميل وبالفعل قمت بالاتصال بسحر التى جاء صوتها مغلفا بالفرح والترحيب بالشقيق المصرى وبالفعل كانت سحر عندها الخبر اليقين حيث أكدت لي أنها كانت منذ دقائق مع اللواء الحمدانى وأنه ينفى خبر مقتله جملة وتفصيلا.

بعد أن انتهيت من كتابة الخبر وإرساله للقاهرة جاءنى صوت سحر عبر الهاتف لتطمئن وتسالنى عن ظروف عملى وهل أنا بأمان وكيف أتعاطى مع واقع بغداد المؤلم وكيف أستطيع توفير احتياجاتى وماذا أعددت لمواجهة معضلة الكهرباء وحرب الماء فى وقت لا توجد فيه أى خدمات بالعراق وهل أحتاج لمساعدة من أى نوع .. كنت أستمع إليها وأنا فى دهشة فهذه السيدة التى تعمل داخل جحيم الموصل وتتلقى التهديد تلو التهديد تكبدت عناء الاتصال بى رغم شبكة الاتصالات المهترئة بالعراق ولم تكتفى بمساعدتى مهنيا بل عرضت أن تهيىء لي أى أجواء آمنة وتنجز لي أى شيىء يساعدنى على الاستمرار فى مهمتى المغلفة بكل أنواع العنت والمخاطر - رغم أنه لم يكن لي بها أى علاقة سابقة ولم نلتقى أبدا - باعتبارها إبنة بغداد التى تعرف دروبها وتستطيع تولي مهمة نصحى بصدد العيش فيها لأن إقامتها بالموصل جاءت بعد أن قضت نصف عمرها فى عاصمة الرشيد وتوطدت بالارتباط بأستاذ جامعى هو هيثم النقيب .

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع اتصالات سحر الحيدرى للاطمئنان والسؤال عن الصحفى المصرى الذى يعمل فى غمار المذبحة التى كانت قد بلغت ذروتها حتى يوم السابع من يونيو عام ٢٠٠٧ عندما جاءنى خبر استشهادها على أيدى عناصر تنظيم ما يعرف « دولة العراق الإسلامية» حيث كانت المطلوب رقم (٤) في قائمة المطلوبين لأمير الدولة الإسلامية وفقا لمنشورات كان قد تم توزيعها بالموصل وتعليقها على جدران المساجد تطالب بقتل « العملاء والخونة الذين يتعاملون مع قوات الشرطة والجيش والقوات الأمريكية».

اذكر أننى سألت سحر ذات مرة عندما تواترت أنباء تلك المنشورات إلا تخافين من الموت ؟ ولماذا لا تغادرين الموصل إلي حين حتى تنكشف الغمة ؟ قالت لي سحر بكل إصرار « لاتهمني الرصاصة إذا كانت قاتلة ، ما يخيفني هو الألم والعوق .. كل منا بيومه » .. روت لي سحر كيف جرى اختطافها عام ٢٠٠٥ على يد مسلحين ونجاتها بأعجوبة بعد أن تم تحريرها على يد قوات الشرطة، وكيف أصيبت فى نفس العام ٢٠٠٦ بإطلاقه من بنقديه «بي كي سي» وكيف خضعت لعمليتين جراحيتين وعادت بعدها لتمارس عملها بالموصل غير عابئة بما ينتظرها من مصير محتوم كانت

تعلمه جيدا .. كانت سحر تقول أن مسألة الخطورة في العمل أصبحت واقع حال علينا لا نتحدث عنها، ولك أن تعلم بأنك إذا وددت العمل بالصحافة في العراق فاعتبر نفسك مقتول مقتول ..لا محالة من ذلك ..وعليك الخيار في القبول بالمخاطرة أو ترك العمل.

اختارت سحر العمل حتى آخر لحظة فى حياتها والمثير أن آخر قصة كتبتها سحر الحيدري لمعهد صحافة الحرب والسلم تناولت عمليات الاغتيال التي تنفذها المجموعات المسلحة المرتبطة بتنظيم القاعدة بحق المصورين العاملين في الموصل ونشر هذا الموضوع في شهر أكتوبر ٢٠٠٧ ضمن تقرير خاص أعدَه المعهد عن واقع الإعلام في العراق في ذلك التاريخ، كانت سحر قد راحت بدورها ضحية القتل عندما تعرَضت لإطلاق نار كثيف فيما كانت تغادر منزلها في حى الحدباء بالموصل.

كانت سحر الحيدري على علم بالمخاطر المحدقة بها ويؤكد لي صديقى المشترك مع سحر الذى يعمل بوكالة أصوات العراق عادل فاخر أن سحر تلقت أكثر من ١٣ تهديدا من من جهات مجهولة، وهي عبارة عن رسالتين كتبتا باليد ووضعتا في باب منزلها و ١١ تهديداً من خلال الهاتف منها ستة اتصالات من أرقام مجهولة توعدتها بالقتل وخمس رسائل حملت نفس المضمون وسبق لها أن نقلت أفراد عائلتها إلى سوريا ضماناً لسلامتهم، لكنّها كانت تعود باستمرار إلى الموصل لتواصل عملها بعد أن اطمأنت على بناتها الأربعة .

سحر البغدادية الشيعية تركت بيت أهلها فى منطقة زيونة الراقية شرق بغداد لتكمل دراستها بالموصل حيث تخرجت من كلية الإعلام عام ١٩٨٨ وأثمر زواجها من شاب سنى في الموصل عن أربعة بنات أكبرهن دعاء   التى فقدت عريسها قبل أن تكتمل فرحتها بالزواج منه عندما طالته يد الغدر قبل أن يضمه عش الزوجية معها .. ويقول عادل أن هذا الشاب الوسيم المتفائل الطموح كان قد جمع مبلغا من المال خلال تجارته بالسيارات ولحقته إحدى العصابات التى تحكم الموصل فى زمن المذبحة بعد أن حصل على مبلغ كبير من بيع إحدى السيارات وقتلوه ليسرقوا النقود وسيارته الحديثة إلا أن سحر الأم القوية الحنونة تمكنت من احتواء ابنتها والعبور بها من تلك المرحلة القاسية رغم ما تعانيه من مطارادات وملاحقات لا تنتهى .

كانت المهنية العالية التى تتمتع بها سحر تدعمها حيادية وشفافية فى التعاطى مع الأحداث سببا فى أن تحظى سحر باحترام الجميع خاصة بعد أن انضمت لفريق عمل وكالة أصوات العراق الوليدة فى نوفمبر عام ٢٠٠٤ وكان الأستاذ عاصم عبد المحسن هو رئيس التحرير في حينها .. كتب عنها عاصم عندما استشهدت «وكأنه

قدرنا الآتي أن ننتقل من اللوعة والأسى على فقد زميل إلى لوعة وأسى أكبر على رحيل زميلة.

لقد تحدت سحر كل ما هو طبيعي وغير طبيعي من أجل أن تواصل المهنة التي عشقتها وكرست لها حياتها..

تحدت أنها امرأة.. تحدت أنها زوجة وتحدث أنها أم لأربع من الزهور البريئة.. تحدت فقدان عريس إحدى بناتها الذي طالته يد الغدر قبل أن يضمه عش الزوجية معها.

لكن تحديها الأكبر كان لقوى الظلام المتربصة بها من أكثر من عام، والتي طاردتها من مكان إلى مكان لكنها أبداً لم ترفع الراية البيضاء.

إن استشهاد سحر لا يمكن أن يكون انتصاراً لتلك القوى لكنه وقود يضاف لكي تظل جذوة الكلمة الحرة مضيئة وسوف تظل » .

وعندما تولى الأستاذ زهير الجزائري رئاسة تحرير أصوات العراق طلب منها أن تنتقل إلى أربيل بإقليم كردستان لتقيم هناك وتعمل بمكتب الوكالة حيث أن كردستان أكثر أمنا بعيدا عن التهديدات الخطيرة التى كانت تتعرض لها من قبل دولة العراق الإسلامية وعندما زارت سحر مقر الوكالة في أربيل قبل وفاتها بأسبوع تقريبا خرجت من الموصل وهى ترتدى نقابا حتى تختفى بعض الوقت عن أعين المجموعات المسلحة لكنها أصرت على إكمال مشوارها بالموصل وعادت مرتدية النقاب رغم أنها لم ترتدى الحجاب فى حياتها .. لم تترك سحر مدينتها التى أحبتها وعملت فيها وأصرت على الاستمرار حتى النهاية . كتب زهير الجزائرى عنها بعد استشهادها يقول « منذ عام أو عامين توطن سحر نفسها مع فكرة القتل، وأحيانا تتحسس ملمس الرصاصة التي تستهدفها، تفعل ذلك لكي لا تتوقف عن ممارسة مهنتها الصحافة. خطفت وأفلتت من خاطفيها بمعجزة ، وحين سافرت لتشفى من صدمة الخطف انتظرتها في بغداد رصاصة طائشة. لم تستطع المكوث في المستشفى، بل حملت جرحها وسافرت إلى الموصل على عجل لتتابع ما فاتها من أخبار.. عاشت تحت التهديد وحفظت رقمها (الرابعة) في قائمة المطلوبين لأمير الدولة الإسلامية، وحفظت معه ملمس الرصاصة التي ستقتلها .. الموت الحقيقي لسحر هو أن تنقطع عن ممارسة المهنة، وفيما عدا ذلك فما سيحصل هو قدر» .

كانت سحر الحيدرى قد حصلت على جائزة كورت شوت للصحافة المحلية والدولية في حفل أقيم في العاصمة البريطانية لندن في نوفمبر من عام ٢٠٠٧. وهي جائزة تقام للمرة الثانية لاستذكار الصحفي الذي قتل بكمين في سيراليون واشتهر

بتغطيته الصراع السياسي والعسكري ليوغسلافيا، كما حصلت الحيدري على جائزة المنظمة الكندية في نفس العام وأقيم احتفال بالمناسبة في السفارة الكندية في سوريا.

خسرت وكالة أصوات العراق في أسبوع واحد من شهر يونيو عام ٢٠٠٧ ثلاثة صحفيين هم نزار الراضي مراسل الوكالة في محافظة ميسان جنوب شرق بغداد وعارف علي مراسل الوكالة في ديالى شمال شرق العاصمة وسحر التى لم يغلق ملف التحقيق فى مقتلها بعد ولم يسدل الستار على حادث اغتيالها المريب.

رحلت سحر الحيدرى «أم البنات» تاركة بناتها الأربعة بلا يد تكفكف دموعهن ومدينتها التي عاشت فيها زهرة عمرها بلا زهور بعد أن احترقت «أم الربيعين»(1) بنيران الكراهية والقتل والأعمى.

رحلت سحر العطوفة الحنونة حتى على الغرباء دون أن التقيها ولو لمرة واحدة رغم رباط المودة الذى استمر حوالى عام عبر الهاتف بعد أن راهنت على تجربتها المثيرة في التعامل مع المواقف الصعبة، .. خسرت سحر حياتها ولم تخسر الرهان على محبة القطاع الأعظم في الحدباء للشابة البغدادية والقطاع الأعظم ممن شاركوها الأيام الصعبة فى بلاط صاحبة الجلالة.

٥ - الشاعر

أموت بساحتي وما اترك الملعب   شربت الموت طوعا ما شكيت بيوم

فى يوم ٢٥ يونيو ٢٠٠٧ كانت إحدى قاعات فندق المنصور ميليا الفخم الذى يقع بمنطقة الصالحية فى الجانب الغربى من نهر دجلة على رأس جسر السنك الشهير تتهيأ لاستقبال المشاركين فى أحد مؤتمرات المصالحة الوطنية من شيوخ عشائر الأنبار والذى كان يشارك فيها قادة المنطقة السنية التى شهدت نشاطات القاعدة وبداية النهاية لها ومن بات يطلق عليهم قوات الصحوة .. وكان الشاعر والإعلامى رحيم طاهر جناح الشهير «برحيم المالكى» يشارك فى المؤتمر باعتباره أول إعلامى يدخل الأنبار وقت اشتعال الفتنة الطائفية وأول من بدأ الجهود الحقيقية لتغيير الصورة الذهنية عن الطائفة الشيعية التى عاشت فى أخوة دائمة مع السنة قبل زمن الفتنة عندما سيطرت قيادات القاعدة على المناطق السنية وفرق الموت والميليشيات على المناطق الشيعية وأراها الجانبان حربا أهلية باعتبار أن الشيعة روافض والسنة نواصب.

(1) أم الربيعين: أحد أسماء مدينة الموصل عاصمة محافظة نينوي التي تعتبر أكثر مناطق العراق اشتعالاً بعد أن كانت أكثر المناطق زهوًا وجمالاً وخضرة وهي أيضًا تسمى الحدباء.

كان رحيم يقول بصوت عال شديد الضجيج رغم ما يعنى ذلك من الوقوف أمام فوهة مدفع الطائفية المقيتة

أرادونا تفرق يا عراق الخير
حدر جنح الظلام اتسللت أقزام
القنابل والمعاول والذبح والموت
كلها اتجمعت حكمت عليك إعدام
لأنك جزء طاهر فى جسد معلول
وطن وحدك صحيح بخارطة جرذان
البعض رادت تجعلك بالأخير تصير
لكنك عراق بكل وقت قدام

ذهب رحيم إلى فندق المنصور للاتفاق مع شيوخ الأنبار الذين استطاع بناء علاقة طيبة معهم باعتبار أحد دعاة الوحدة الوطنية على تنظيم مؤتمر عام يضم قيادات سنية وشيعية للمزيد من المصالحة فى وقت كانت المصالحة نغمة نشاذا لدى حكام زمن المذبحة الذين استطاعوا النفاذ إلى كل الأمكنة حتى تلك المحرمة ومنها هذا الفندق الفخم الذى يحظى بإجراءات أمنية مشددة نظرا لموقع الاستراتيجى المواجه لمحافظة بغداد والسفارة الإيرانية ومبنى شبكة الإعلام العراقى الرسمية التى تمتلك القنوات التليفزيونية والإذاعات التابعة للدولة ومنها قناة العراقية التى كان يعمل بها رحيم بالإضافة إلى موقعه على رأس أحد أهم الجسور التى تربط شطرى العاصمة بغداد « الكرخ والرصافة» وهو جسر السنك .. حيث نفذ الرافضون للمصالحة والدفىء بين أبناء العراق الممزق مجزرة جديدة من خلال تفجير مروع راح ضحيته العشرات بين قتيل وجريح بالإضافة إلى تدمير مدخل النفق وعدد من قاعاته .

روى لى حيدر الإبن الأكبر لرحيم المالكى كيف استطاع القتلة من خلال تواطؤ عناصر لا أحد يعلمها كما جرت العادة فى مثل تلك الأمور أن ينفذوا إلى داخل الفندق ويقوموا بزرع المتفجرات داخل القاعة التى كان يفترض أن تشهد الاجتماع الرئيسى لمؤتمر المصالحة الوطنية وهى قاعة الأمراء بطريقة لا تسمح لأحد من الحاضرين بالنفاذ من لهيب انفجارها وهو دليل على أن عملية التفخيخ جرت بهدوء تام وفق آلية تحتاج الكثير من الوقت والكثير من الخبرة الفنية .

يقول حيدر أنه علم بوجود مرافق لأحد المسئولين الكبار كان قد أقام بالفندق قبل موعد المؤتمر بعدة أيام واستطاع أن يقيم علاقة قوية مع الحراس والمسئولين

بالفندق الشهير من خلال الإغداق عليهم بالهدايا والأموال وهو ما أتاح له الدخول فى أى وقت يشاء مع أى شخص يشاء دون المرور بإجراءات التفتيش الصارمة التى يخضع لها جميع المقيمين بالفندق أو الزائرين وهو ما يفسر اللغز وراء هذه العملية التى جرت مثل كثير من التفجيرات وتركت أسئلة حائرة لكل من يعرف جغرافية المكان الذى شهد التفجير وطبيعة المناطق التى يجب أن يمر بها المنفذون أو من يحملون حقائب المتفجرات .. فهذه المنطقة المشئومة التى شهدت تفجيرات الأحد الدامى والأربعاء الدامى بعد ذلك بحوالى عامين محاطة بسياجات أمنية وإجراءات شديدة التعقيد لا يستطيع أحد أن ينفذ إليها إلا بسلطان .

يروى حيدر كيف نجا والده من الإعدام فى عهد صدام حسين عندما جرى اعتقاله مع المعارض الذى تم إعدامه على الكعبى عام ١٩٩٩ إلا أنه نجا بأعجوبة بعد أن نفى عنه رفاقه تهمة كتابة قصيدة تحرض على الثورة ضد صدام حسين وهى أحد الأسباب التى أعدم بسببها الكعبى إلا أنه لم يستطع النجاة من حكام زمن المذبحة الذين فرضوا قانون «الموت للجميع» وهو ما تنبأ به رحيم المالكى قبل موته عندما توفى أحد أصدقائه المقربين ويدعى على محسن فكتب يقول :

انا ميت شعر واتوسل الشيطان
يا شيطان شعرى انقطعت أخبارك
قبل كانك جحا كل ساعة تدق الباب
ماريد شعر .. مر وخد مسمارك
يا شيطان شعرى شاعر أنى أموت
يتعطل فرض والكون يدارى
أنا واثق عفتنى / تركتنى/
روح لا رديت
يوم فراق وجهك .. يوم المبارك
إش جنيت من الشعر
لو سجن .. لو طعنات

يقول حيدر أن شقيقته الصغرى هدى التى تسير على درب أبيها ما زالت حزينة لأن رحيم ذهب دون أن يلقى عليها تحية الوداع وإن كان قد احتضنها وهى تغص فى نوم عميق عندما خرج للمرة الأخير ذاهبا إلى ميدان العمل الصعب الذى اختاره ولكن هذه المرة كانت خروجا بلا عودة بعد أن أرسى إحدى قواعد الوحدة الوطنية بأشعاره

التى يرددها الجميع .. يقول رحيم المالكى فى إحدى قصائده التى يكتبها باللهجة العراقية

سد باب الفتن واقطع حدود إبليس
ما فى مشكلة بلا حل
ياهو اللى فهمك من نقعد أنى وياك ونديرالبلد
هذا البلد يختل
يا هو اللى اوهمك
واللى قال لك كذاب أقبل ذل
ما أهاب الموت مقابل رمح طولك
وأرفض أتختل / أختبىء/

٦ - الموسوعى

لم تصنف منظمة اتحاد الصحفيين الدولي العراق كأخطر دولة بالنسبة للعمل الصحفي عبثا.. فالصحفيون العراقيون والأجانب يعملون في آتون النار وهم يبحثون عن الخبر أو الحقائق أو حتى الأشياء البسيطة التي يتطلبها عملهم الصحفي.

وفى هذا الإطار راح الكثيرون ضحايا المحرقة العراقية التي تأكل الأخضر واليابس دون تمييز فى الجنس أو اللون أو الدين أو الاثنية العرقية التى تتعدد فى العراق منذ القدم .

ومن الأسماء التي بقيت في ذاكرتي الدكتور جاسم العيساوي ، الذي حدثني عنه ذات يوم أحد الأصدقاء الصحفيين .. فالعيساوي لم يكن صحفيا مجردا ، فهو حاصل على شهادة الدكتوراة فى العلوم السياسية من جامعة بغداد ، كما انه حاصل على شهادة الإفتاء وفق مذهب الإمام الشافعي ، وفوق هذا كله كان احد الذين شاركوا في كتابة الدستور العراقي من أهل السنة ، وساهم في تأسيس صحيفة (السيادة) التي احتلت عند انطلاقتها عام ٢٠٠٤ مكانة متميزة على الساحة الإعلامية العراقية قبل أن تنزوي أخيراً بسبب الإمكانات المادية شأنها شأن الصحف العراقية الجادة التي لا تجد من يدعمها.

أخبرني صديقي أن العيساوي قبل مقتله بأيام قليلة اخبرهم بأنه يشعر بالتوتر لأن هناك من يترصد خطواته ، وعندما طلب منه زملاؤه في العمل الحد من تحركاته والبقاء في المنزل فترات أطول ، ابتسم ,وقال «لندع الأمر على الله».

obeikan.com

قال صديقي الصحفي أن العيساوي اخبره ذات يوم انه يشعر بأن هناك من يقوم بتصويره ومراقبة دخوله وخروجه إلى المنطقة الخضراء عند حضوره الجلسات الخاصة بلجنة كتابة الدستور عام ٢٠٠٥ ، ومع انه كان يشعر بالتهديد إلا أن إصراره على أن يؤدي ما يعتبره واجبا تجاه الشعب العراقي ،يجعله يستمر بعمله دون خوف ، خاصة بعد أن بدأت سلسلة من عمليات الاغتيال ضد الأعضاء السنة في لجنة كتابة الدستور.

يقول سائق سيارة الميكروباص التي تنقل العاملين في جريدة السيادة «في أحد الأيام وبينما أقوم بعملي المعتاد صباحا لجلب العاملين في الجريدة إلى مقر العمل من منازلهم اجتزنا حي الشعلة الذي كان تحت سيطرة المليشيات ، كنا نشعر بالخوف والتوتر كلما اجتزنا هذه المنطقة باتجاه منطقة الكاظمية عبر إحدى البقع الخطرة في بغداد والتي تسمى (جكوك) وهي عبارة عن منطقة قام الناس ببناء دورهم فيها تجاوزا على الأراضي بعد سيادة الفوضى على بغداد عقب الاحتلال الأمريكي ».

يضيف السائق «ما أن وصلنا منطقة جكوك حتى لاحت لنا سيارتان متجاورتان في إحداهما مسلحون راحوا يطلقون النار على السيارة الأخرى التي انحرفت عن الطريق وانقلبت مرات عدة ، ويكمل وهو يغالب دموعه ، لم يكتف المسلحون بذلك بل ترجل احدهم من السيارة واتجه نحو السيارة المقلوبة وراح يطلق النار باتجاه من فيها ليتأكد من مقتلهم ، وعاد إلى سيارته التي غادرت مكان الحادث مسرعة فيما بقينا نحن وآخرين نراقب الموقف عن بعد عاجزين عن فعل أي شيء.!!

ويكمل السائق «حين أبصرت السيارة المقلوبة عرفت على الفور أنها سيارة الدكتور جاسم العيساوي فأخبرت من معي ،غير أنهم لم يصدقوا حتى اقتربنا من مكان الحادث وترجلت لاشاهد العيساوي ملقى داخل السيارة وقد مزق الرصاص جسده بعد أن ارتمى فوق جسد ابنه وكأنه يحاول أن يحميه ، ولكن دون فائدة فقد ذهب الاثنان ضحية العنف والتطرف ، والإرهاب ».

يقول صديقي الصحفي لم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة والفريدة ، فقد كنا نشاهد يوميا عند ذهابنا إلى العمل صباحا الجثث ملقاة على قارعة الطريق ، أو داخل سيارات كانوا يستقلونها ،وقد مزقها الرصاص ،ونمرّ نغالب دموعنا وخوفنا ، ومشاعرنا كأن الأمر أصبح اعتياديا ،كأنها أصبحت طبيعة الحياة في بغداد التي سيطرت عليها المليشيات ، والتنظيمات المسلحة التي لا تدري إلى أي جهة تنتمي حتى شاعت نكتة في بغداد تقول أن المرء يخاف أن يقول لسيطرة ما أنا شيعي فيكتشف أن السيطرة الوهمية لتنظيم سني ،أو يقول أنا سني فتكون السيطرة لتنظيم شيعي ،

صحيح كما يقال شر البلية ما يضحك فلم يتوان العراقيون عن قلب الأحداث إلى نكت وطرائف تشي بالواقع المؤلم والمخيف الذي يعيشونه باسم الدين والسياسة والتحرير!

٧ - الغائبان

لا تزال قناة السومرية تترقب خبرا عن مراسليها ريم زيد ومروان خزعل اللذين اختطفا من قبل جهة مجهولة في بغداد، أما ذويهما فلم يهدأ لهم بال، ومناشدة الخاطفين الإفراج عنهما .

بات الرجاء الوحيد للأهل والأصدقاء هو عودة الغائبين رغم مرور العام تلو الآخر بلا أي أثر أو حتى مجرد معلومة يمكن أن تجلى الحقيقة .. فلا أثر لحياة للغائبين ولا قبر يمكن زيارته .

تقول الرواية التى لا يعلم غيرها الجميع أن ريم زيد ومروان خزعل اختفيا في ظروف مجهولة وغامضة بعد أن جرى اختطافهما فى أول فبراير من العام ٢٠٠٦ ولم تزل كذلك حتى الساعة.

ريم زياد وزميلها مروان خزعل كانا قد خرجا للتو من مؤتمر صحفي بمقر أحد الأحزاب في حي اليرموك غرب العاصمة بغداد عندما استوقفتهما سيارة تشبه سيارات المسئولين وحكام العهد الجديد رباعية الدفع ذات زجاج مظلل ترجل منها أربعة أشخاص مسلحين وتحت التهديد اقتادا الشابين اليافعين إلى مكان غير معروف بلا سبب معروف أو تهمة محددة سوى أنهما من أبطال الحقيقة الذين يعملون فى ميدان ليس فيه قاعدة أو قانون ولا مصير لمن يغيب إلا الموت .. خمسة أعوام بلا أى خبر عن الصحفيين الشابين .

ربما ذنب ريم ومروان أنهما ينبذان العنف ويعشقان الكلمة.. عاشا قضايا الوطن والإنسان بكل تجرد ومحبة وإحساس في ظل العنف المتمادي الذي يهدد كيان البلاد وحياة العباد.

٨ - المنسى

يرقد إبراهيم الكاتب على فراش من الألم .. قعيدا يعانى من كسر فى الفقرة السابعة أضرت بالحبل الشوكى وهو ما أدى إلى عجز كامل فى القدمين اللتين طالما ملأتا شوارع بغداد ركضا وراء خبر أو صورة أو تقرير فى زمن كانت فيه الكلمة سبيلا مباشرا للموت.

تعلو وجه إبراهيم ابتسامة ساخرة تختلط فيها مشاعر من الألم والأمل والحب والنشوة والرغبة فى القفز مرة أخرى وراء حقيقة ينتظرها العراقيون الذين يراهم إبراهيم فى حال ليس أفضل من حاله فإذا كان قد فقد القدرة على الحركة وأصبح طريح الفراش عندما أصابته شظايا انفجار أطاح برؤوس آخرين فإن باقى العراقيين باتوا عاجزين عن الحركة التى تنظم حياتهم بعد أن أطاحت الصراعات السياسية بآمالهم فى أن يروا نتائج خروجهم بالملايين للتصويت فى الانتخابات النيابية التى جرت فى مارس ٢٠١٠ ويجلس على كراسى الحكم والبرلمان رجال يحققون طموحاتهم فى العيش الكريم.

كانت موهبة إبراهيم الذى ولد عام ١٩٧٥ ورغبته فى الإصلاح والتغيير بمثابة الدافع الأكبر للالتحاق بالعمل الإعلامى الذى كان يمثل بالنسبة له نافذة للإطلال على الحقائق المتوارية بفعل العاطفة والـولاءات والانتماءات الحزبية والعشائرية والطائفية بالإضافة إلى الخوف من التعرض للعقاب الذى يتصاعد حسب الجرم والمسافة التى يقف فيها الإعلامى من الحقيقة ولهذا حاول إبراهيم أن يقترب من الحقيقة كلما أمكن مع حيادية نسبية وهو أمر تغلفه المخاطر خاصة فى بلد مثل العراق الذى لا مجال فيه لهذا النوع من الاستقلالية .. فلابد أن يقودك العمل الإعلامى إلى الاحتكاك بجهة ما سواء كانت حاكمة أو نافذة سياسيا أو أمنيا فى زمن المذبحة .. إلا أن إبراهيم حاول قدر الإمكان أن يبتعد عن النقاط المحرمة مثل الطائفية والدين الذى غرس تجاره أنيابهم فى جسد المجتمع العراقى المنهك بالطعنات والتراتيل التى أسسها حكام زمن المذبحة وترعرعت فى ظل نظام يقوم على المحاصصة الطائفية والجهوية والعرقية وكل أنواع المحاصصات التى تزكى نيران الفتنة .

التحق إبراهيم بقناة العراقية شبه الرسمية عام ٢٠٠٤ وتنقل بين أقسامها محررا ومندوبا ومراسلا ليصول ويجول ينقل الأحداث ويمد شاشته بتقارير مثيرة تتناول جوانب يصعب تمريرها داخل قناة تخضع لسيطرة الدولة خاصة تلك التى تراجع ترتيبات البيت العراقى المضطرب ..وفى تلك المرات التى خرج فيها الشاب الطموح سعيا وراء مادة إعلامية متميزة بمناسبة انعقاد مؤتمر للمصالحة الوطنية فى منطقة أبو غريب المشتعلة التى تقع على بعد ٢٠ كم غربى بغداد ربيع عام ٢٠٠٩ وتحديدا يوم ١٠ مارس وكان يشارك فيه اللواء مارد عبد الحسن مسئول العشائر بوزارة الداخلية الذى يبدو أنه أصابته نشوة الاستقرار الأمنى الهش الذى كانت تتميز به تلك الفترة من زمن المذبحة وأصر على تفقد الشوارع والأسواق فى البلدة التى كانت أحد معاقل القاعدة وفرق الموت ليثبت من خلال صورة مباشرة وجود استقرار أمنى .

كان هناك من يترقب تلك اللحظات التى تحركها نشوة النصر لرجال الأمن وثقتهم الزائدة فى قدرتهم على ضبط الأمور ويبدو أن تسريبا جرى إلى إحدى الخلايا النائمة بالمنطقة فقامت بنصب كمين محكم للزائرين المنتشين بالأمن الهش حيث وقع انفجار مروع نفذه انتحارى بحزام ناسف أعقبه سيل من الطلقات النارية مما أدى إلى استشهاد مراسل قناة البغدادية صهيب عدنان ومصوره حيدر هاشم الذين كانوا ضمن الموكب واستشهاد وإصابة أكثر من ٨٠ آخرين .. فيما أصيب إبراهيم الكاتب بتهتك شديد فى الفقرة السابعة وتم نقله إلى مستشفى أبو غريب التى رفضت استقباله لخطورة حالته ثم إلى مستشفى اليرموك ببغداد لإجراء عملية فورية لاستخراج شظيه استقرت بالرأس ونظرا لصعوبة التنفس تم عمل فتحة فى الرقبة لغرض التنفس الصناعى إلا أن الحالة ساءت كثيرا .

لجأ مرافقوا إبراهيم للقوات الأمريكية التى قامت بنقله إلى قاعدة بلد على بعد ٨٠ كم شمال بغداد وتم إجراء عدة عمليات جراحية بإشراف أمريكى جرى بعدها نقله إلى مدينة الطب وسط بغداد .

ساءت حالة إبراهيم بسبب عدم وجود رعاية طبية جيدة خاصة وأن حالته تستدعى نقله للعلاج بالخارج وأدى ذلك إلى إصابته بعدة قرح فى الظهر والراس والقدمين مع استمراره طريح الفراش دون أن يلتفت أى من مسئولى القناة التى يعمل بها والمملوكة للدولة إلى حالته رغم المناشدات المتكررة من أهله وبعض منظمات المجتمع المدنى المهتمة بالشأن الصحفى والتى تعجز إمكانياتها عن توفير العلاج لحالته الحرجة التى استقرت عند إصابته بعجز كامل فى القدمين يحتاج علاجهما مع إعادة التأهيل إلى حوالى ١٠٠ ألف دولار يقول إبراهيم بضحكة عالية لو أملك هذا المبلغ لتزوجت لتشاركنى زوجتى فراشى البارد !!

عندما زرت إبراهيم فى منزل أهله فى منطقة السيدية التى تبدو كسجن مفتوح تحيطها الحواجز والجدران الأسمنتية العالية ولا يوجد لها سوى مدخل وحيد ومخرج وحيد حيث كانت منطقة محرمة شهدت من أعمال العنف أبشعها ومن صور القسوة أشدها فهى تواجه منطقة البياع التى تخضع لنفوذ فرق الموت والميليشيات فتحولت من منطقة راقية تراود أحلام الجميع للسكن والعيش فيها إلى منطقة تفوح منها رائحة الموت لا يجرؤ كائنا من كان على السير فى شوارعها ولا يحلم أحد بالوصول إليها بعد انتصاف اليوم وفقا لقانون فرضه حكام زمن المذبحة لكنها فى نهاية العام ٢٠١٠ تبدو منطقة هادئة رغم أنها لم تتخلص من الجدران الأسمنتية التى تحيط بها من كل جانب .. شاركت إبراهيم غرفته المتواضعة ليوم كامل لم

Opeikan.com

تتوقف قفشاته وضحكاته العالية ومناقشاته الجادة فى الأدب والفن والسياسة بنفس الحيوية التى لم تغادره رغم كل ما غادر جسده من قوة وما أصابه من عجز فى الجزء الأسفل لم يؤثر من قليل أو بعيد على جزئه الأعلى .. يقضى إبراهيم يومه متنقلا بين صفحات الإنترنت والكتب ومحاولة كتابة فيلم وثائقى جديد عن الاتجاه الدينى بالعراق الجديد وهل هو اتجاه سياسى أم دينى أخلاقى وهل هو عراقى خالص أم تدفعه أجندات خارجية .

قال إبراهيم أنه كان يكره صدام حسين بشده ويلعن فترة حكمه التى جرت الويلات على الشعب العراقى إلا أن ما جرى بعد سقوط صدام حسين جعله يعيد النظر فى البديل الذى لم يكن كما أراد هو ومواطنوه وصار التغيير الذى هلل له غالبية العراقيين فرحا أشد وطأة وظلما وتقاعسا عن نصرة المواطن المنكوب فى كل العهود .

ببعض النكات المصرية ودعنى إبراهيم من فوق فراش الألم الذى لا يفارقه إلا قليلا مع ابتسامة لا تغادر وجهه رغم الفاجعة متمنيا أن يزول الوهم ويأتى الحلم منتشيا ليصبح العراق كما أراده دائما لا يهم أن يعيش خلاله بحيوية الشباب وانطلاقته أو يستمر طريح الفراش ..غادرت إبراهيم الكاتب ترافقنى مشاعر متصارعة لا أستطيع التعبير عنها لترسم فى مخيلتى صورا لا تغيب عن شاب مقبل على الحياة رغم كل ما يعانيه يتحدث فى الفكر والثقافة والحكمة .. يحلم أن يغير مجتمعه الذى تغير فعلا ولكنه تغيير لا يروق لمن أرادوه ولا يمد يد المساعدة لمن يحتاجوه .. غادرت إبراهيم لأتقمص حلمه فى أن يعود منطلقا على قدمين ثابتتين يطارد الحقيقة ويمارس عمله الإعلامى مرة أخرى حتى وإن قتلته الرغبة فى كشف الحقيقة هذه المرة حتى لا يبقى ذلك المنسى طريح فراش الألم .

٩ - رائحة الموت

فى كردستان العراق حيث الطبيعة الساحرة والاستقرار الأمنى الملحوظ كل شيىء متاح ومباح إلا شيء واحد هو الاقتراب من المناطق المحظورة خلف الأسوار العالية لقصور الحكم والغرف المحفورة فى غياهب السجون التى لا يعلم أحد من يقيم فيها وإلى أين تمتد إقامته .. لأن الحقيقة تقتل قائلها وكل مقال تصبح قيمته رصاصة واحدة إذا تجاوز صاحبه الحدود المسموح بها فى الإقليم المحكوم بقبضة حديدية تغلفها قشور من الديمقراطية الظاهرية تديرها عائلات بمنطق العشيرة لا الدولة الحديثة .

ورغم أن سردشت عثمان كان يعلم ذلك جيدا إلا أنه قرر أن يخوض غمار

معركة الحقيقة التى تفوح خلالها رائحة الموت وظل يتقدم واثق الخطى حتى لامس تلك الحقيقة التى يغلفها الموت ويمارس طقوسه فى أبشع صورها .

سردشت عثمان الطالب في السنة الرابعة بكلية الآداب كان من المفترض أن ينهي دراسته الجامعية بعد شهر لينال الليسانس من جامعة صلاح الدين والذي يقوم فضلا عن نشر مقالاته التي تنبيء بموهبة صحفية كبيرة بترجمة الموضوعات من اللغة الإنجليزية إلى الكردية جرى اختطافه من داخل جامعته «صلاح الدين» بأربيل، عاصمة إقليم كردستان التي يقال عنها أنها أكثر عواصم العالم أمنًا ! واقتيد من قبل الخاطفين «أمام أنظار الطلاب في الثامنة والنصف صباحا و قبل نصف ساعة من محاضرة كان يتجه لحضورها , وفي صباح اليوم وجدوا جثته ملقاة في المحافظة المجاورة « نينوى » مقيد اليدين والعينين يثقب الرصاص جسده لتنتهى حياته كما أراد نهاية تراجيدية .

قبل أن يرحل سردشت الوسيم النابه كانت رائحة الموت قد اقتربت منه حتى ميزها بدقة وكتب مقالا فى موقع كردستان بوست يوم ٢١/١/٢٠١٠ بعنوان «اول أجراس قتلي دقت»

قال فيه .. في الأيام القليلة الماضية قيل لي انه لم يبق لي في الحياة إلا القليل، و كما قالوا أن فرصة تنفسي الهواء أصبحت معدومة. لكنني لا أبالي بالموت أو التعذيب. سأنتظر حتفي وموعد اللقاء الأخير مع قتلتي. وأدعو أن يعطونني موتا تراجيديا يليق بحياتي التراجيدية. أقول هذا حتى تعلموا كم يعاني شباب هذه البلاد وان الموت هو ابسط اختياراتهم. حتى تعلموا أن الذي يخيفنا هو الاستمرار في الحياة وليس الموت. وهمي الأكبر هو إخوتي الصغار وليس نفسي. ما يقلقني في هذه التهديدات هو أن هناك الكثير الذي لابد أن يقال قبل أن نرحل. مأساة هذه السلطة هي أنها لا تبالي بموت أبنائها.

أمس أخبرت عميد كليتي أنني قبل يوم تعرضت للإهانة والتهديد بالقتل. ولكنه قال لي أن هذه مشكلة تخص البوليس. لا اعلم هل هناك جامعة في العالم يهدد احد تلامذتها بالقتل ثم لا تبالي بذلك وتجلس بكل راحة في صلافتها وانحطاطها؟ كان على عميد كليتي أن يجعل هذه المشكلة تخصه أو تخص الجامعة لأنني جزء منها. لكنني لم اصدم لأنني اعلم منذ وقت طويل أن جامعات هذا البلد ليست بيوت اطمئناننا.

بعد هذا اتصلت بالعميد عبدالخالق مدير البوليس في أربيل. قال لي: «أن رقم التليفون الذي هددك قد يكون من الخارج، أو ربما مشكلة شخصية. قد تتكرر التهديدات لكن مدينة أربيل آمنة ولن تحدث مشاكل من هذا النوع». بابتسامة

ساخرة كنت أتخيل عما إذا كان ساركوزي هو الذي هددني، لكنني كيف أأمن على حياتي واحد أصدقائي تعرض قبل أيام للضرب والإهانة بسبب عدة مقالات نشرها قبل فترة، اجبر على إثرها ترك هذه المدينة؟

فليحدث ما يحدث، لأنني لن اترك هذه المدينة وسأجلس في انتظار موتي. أنا اعلم أن هذا هو أول أجراس الموت، وسيكون في النهاية جرس الموت لشباب هذا الوطن. ولكنني هذه المرة لن اشتكي ولن ابلغ السلطات المسؤولة. أنها خطوة خطوتها بنفسي وأنا بنفسي أتحمل وزرها. لذلك فمنذ الآن فصاعداً أفكر أن الكلمات التي اكتبها هي آخر كلمات حياتي. لهذا سأحاول أن أكون صادقا في أقوالي بقدر صدق السيد المسيح. وأنا سعيد أن لدي دائما ما أقوله وهناك دوما أناس لا يسمعون. ولكننا كلما تهامسنا بدأ القلق يساورهم. إلى أن نبقى أحياء علينا أن نقول الحق. وأينما انتهت حياتي فليضع أصدقائي نقطة السطر، وليبدءوا هم بسطر جديد.

كان سردشت يعلم أنه اقترب كثيراً من قدره المحتوم وأن الأمر مسألة وقت حيث كان قد دق بعنف أبوابا محرمة من خلال مقالين أثارا ضجة كبرى وجلبا عليه الويلات والتهديدات فى مجتمع لا يعرف المداعبة أو «الهزار» كما يقول المصريون .. ولعل قراءة متأنية لمقالات سردشت يمكن أن تؤشر إلى اليد التى أطلقت الرصاص عليه بعد أن أذاقته أشكال التعذيب لتلقى به على قارعة الطريق

**** المقال الأول :**

أنا اعشق بنت مسعود بارزاني

(نشر في ٢٠٠٩/١٢/١٣ في موقع كردستان بوست)

أنا اعشق بنت مسعود بارزاني. هذا الرجل الذي يظهر من شاشة التلفزيون ويقول أنا رئيسك. لكنني أود أن يكون هو (حماي) اي والد زوجتي.، أي أنني أريد أن أكون عديلا لنيجيرفان بارزاني (رئيس حكومة كردستان السابق).. حين أصبح صهرا لبارزاني سيكون شهر عسلنا في باريس، ونزور قصر عمنا لبضعة أيام في أمريكا.. سأنقل بيتي من حيّنا الفقير في مدينة أربيل إلى مصيف (سري رش) حيث تحرسني ليلا كلاب أمريكا البوليسية وحراس إسرائيليون.

والدي الذي هو من (بيشمركة) أيلول القدامى، والذي يرفض الحزب الديمقراطي الكردستاني إلى اليوم تقديم خدمات التقاعد له بسبب انه ليس ضمن صفوف الحزب في الوقت الحالي، سأجعله وزيرا للبيشمركة.

أخي الذي تخرج من الكلية، وهو الآن عاطل عن العمل ويريد الذهاب إلى الخارج

كلاجئ، ساعينّه كمسؤول لحرسي الخاص. أمّا أختي التي مازالت تستحي أن تذهب إلى السوق عليها أن تسوق افخر السيارات مثل بنات العشيرة البرزانية. و أمي التي تعاني أمراض القلب والسكر وضغط الدم ولا تملك المال للعلاج خارج الوطن، سأجلب لها طبيبين إيطاليين خاصين بها في البيت.. وسأفتح لأعمامي دور ضيافة وأعيّن أبناء عمومتي وأخوالي نقباء و عمداء ألوية في الجيش. لكن أصدقائي يقولون لي «سرو» (تصغير اسم سردشت) دع عنك هذا الأمر فهذه عائلة الملا (يقصد الكاتب عائلة ملا مصطفى البرزاني والد مسعود) ما أن قالوا انتهى أمرك حتى صار قتلك حتمياً.. لكنني لست اكفر.. احلف بمقبض خنجر ملا مصطفى البرزاني أن والدي قضى ثلاثة ليال متوالية في احد الجبال مع إدريس البرزاني ابن الملا.. لذلك فما الضير أن يقول مسعود أنا رئيسكم؟ ولكن فليقل الرئيس كم مرة زار حياً من أحياء أربيل والسليمانية منذ ثمانية عشر عاما وهو رئيسنا؟

ولكن مشكلتي هي أن هذا الرجل عشائري إلى درجة لا يحسب أي حساب لأي رجل خارج حدود مصيف سري رش. بنقرة واحدة في شبكة الانترنيت استطيع أن أجد كل زوجات رؤساء العالم لكنني لا اعرف إلى الآن كيف هي حماتي؟ (يقصد الكاتب زوجة مسعود بارزاني).

لا اعرف اطلب من مَن ليرافقني لطلب الزواج؟

في البداية قلت اصطحب عددا من الملالي والشيوخ المسنين والبيشمركة القدامى بعد التوكل على الله سنتقدم للخطبة في أمسية ما.. لكن صديقا لي وهو صحفي قال لي: (ابحث عن الجحوش والخونة الذين قاموا بعمليات الأنفال واصطحبهم معك لان مسعود بارزاني يحب جدا أمثال هؤلاء).. لكن صديقا آخر قال (إذا تسمع كلامي اقترب من نيجيرفان في مؤتمر صحفي وأهمس في أذنه أنك وراء مهمة خيرية.. أو إذا لم تستطع فاسأل (دشنى-مطربة كوردية على النسق الأوروبي) أن تدبر لك هذا الأمر، فهي تلتقي بهم كثيرا (بعائلة بارزاني).

** **المقال الثاني :**

الرئيس ليس إلهًا ولا ابنته

(نشر في موقع كردستان بوست في ٢٠١٠/١/٢)

هنا بلدٌ لا يسمح لك ان تسأل كم هو مرتب الرئيس الشهري؟ لا يسمح لك أن تسأل الرئيس لماذا أعطيت كل هذه المناصب الحكومية والعسكرية لأبنائك وأحفادك وأقاربك؟ من أين أتى أحفادك بكل هذه الثروة؟ إذا استطاع أحد أن يطرح هذه الأسئلة

فإنه قد اخترق حدود الأمن القومي وعرّض نفسه لرحمة بنادقهم وأقلامهم. وبالنسبة لي بما أنني ذكرت في إحدى مقالاتي بنت الرئيس، فإنني بذلك تجاوزت الخط الأحمر للوطن والأخلاق والأدب الإعلامي.. أن ديمقراطية هذا البلد هي هكذا، ممنوع التعرض إلى اليشماغات الحمراء (تلك التي يضعها رجال عشيرة بارزاني على رؤوسهم) والأعصبة، أن فعلت ذلك فلدى القوم حلول نعرفها جميعا.. لا اعلم هل بنت رئيسنا راهبة لا ينبغي لأحد أن يعشقها، أم أنها مقدسة لا بد أن تبقى أيضا رمزا وطنيا؟

تُرى ما هي مخاطر كتابة كوميدية عن الرئيس؟ جميعنا شاهد فيلم شارلي شابلن الدكتاتور العظيم الذي عرض آلاماً عظيمة عن طريق الكوميديا.

الكثير من الرسائل الإلكترونية التي وصلتني كانت تهددني وتطلب مني أن أنشر صورتي وعنواني، كأنني لو كنت سائق سيارة لم يقف عند الإشارة الحمراء.. لقد بعثت بصورتي إلى هؤلاء الأصدقاء، ولا أعلم ماذا يريدون من صورتي؟

لكن هذه المقالة هي جواب على مقالة احدهم تجرأ أن يكتب مقالة للرد عليّ، منتحلا اسم فتاة.. قبل كل شئ أبارك له انه تجرأ على أن يرد عليّ.. ولكن رجائي من هذا الشخص أن لا يعرّفني كنوشيرواني ــ نسبة إلى زعيم حركة التغيير المعارضة نوشيروان مصطفى الذى فاز بالانتخابات فى السليمانية معقل أنصار جلال طالبانى) بل كشاب من شباب هذا البلد.. صحيح أنني أعطيت صوتي لقائمة التغيير في الانتخابات، وكنت من أنصارها الجدّيين واجمع لها الأصوات في المجالس والندوات.. لكن كل هذا كان بدافع مبدأ هو: (أننا رابحون حتى ولو بدلنا الشيطان بتلاميذه). أما أنت – كما الجميع - كنت قد طلبت مني صورتي الشخصية واسمي الحقيقي، كنت أود أن ابعث لك صورتي وكن على يقين أن اسمي ليس مستعارا، ولكنك لم تضع عنوان بريدك الالكتروني في مقالك حتى أبعث لك ما طلبت.. منذ الآن فصاعدا أنا كأي شاب لا مبالي في أزقة وشوارع مدينة أربيل، عاصي عن كل أصنام وتماثيل السلطة، ننتظر مثل النبي إبراهيم الفرصة لنكسرها كلها.. هذا المقال هو جواب على مقالة نشرت في موقع كردستان نت لأحدهم ادعى أن اسمه (أفين) تحت عنوان: جواب لأحد الشاتمين في موقع كردستان بوست.

وتذكر عملية قتل سردشت بعملية مشابهة إلى حد كبير حصلت مع صحفي كردي آخر فى يوليو عام ٢٠٠٨ فعدا المئات من الانتهاكات التي طالت الصحفيين الأكراد في السنوات الماضية والتي تم توثيقها من قبل الجهات المختصة مثل نقابة صحفيي كردستان ومرصد الحريات الصحفية وجمعية الدفاع عن حقوق الصحفيين والتي كانت تتراوح بين الضرب والإهانة والاعتقال ومصادرة وكسر الأجهزة

الصحفية، حصلت حادثة منذ سنتين تم فيها اغتيال الصحفي المستقل «سوران مامة حمة» أما منزله في مدينة كركوك المتنازع عليها والتى يطالب الأكراد بضمها إلى إقليم كردستان بينما يطالب العرب والتركمان ببقائها تحت ولاية الحكومة المركزية العراقية.

وكان «مامة حمة»، البالغ من العمر ٢٣ عاما، مسؤول مكتب مجلة «لفين» السياسية الناقدة في كركوك وتم اغتياله بعد أن كتب عدداً من التحقيقات النقدية التي تكشف فساد مسؤلي الأجهزة الأمنية في المدينة وأغلبيتهم كانوا تابعين لحزب مسعود بارزاني.

وكما قال لي صحفى كردى: «عندما تلامس الحقيقة فى كردستان فإنك تلامس الموت ، ولهذا اعتبرت صحيفة «الجارديان» البريطانية أن اختطاف وقتل الصحفي الكردي سردشت عثمان يطرح «أسئلة صعبة» على حكومة إقليم كردستان .

وقالت الصحيفة: «قد تكون هناك مأساة أخرى إذا وقعت في أي مكان آخر في العراق، ولكن قتل زردشت عثمان (٢٣ عاما) الصحفي المستقل والطالب الجامعي بعد خطفه وتعذيبه، قد شكل صدمة لإقليم كردستان العراق المستقر نسبيا، حيث أن السلطات تقوم بالكثير والمزيد من الإيضاحات حول ذلك.

وأضافت أن «عثمان كان يكتب بشكل مجهول ولكنه كشف عن هويته في وقت لاحق منتقدا السلطات والمحسوبية والفساد الذى يعاني منه إقليم كردستان كما دفعت به الحرية في (الإقليم) إلى نشر عدد من المقالات التحريضية ضد كبار المسؤولين وإهانة الاتحاد الوطني الكردستاني (بزعامة جلال طالباني) والحزب الديمقراطي الكردستاني (بزعامة مسعود بارزاني).

وأشارت «الجارديان» إلى أن عثمان تجاوز الخط الأحمر من المحرمات المحلية عن طريق كتابة رغبته في الزواج من ابنة الرئيس مسعود بارزاني حيث واجه بعد نشر مثل هذه المقالات، التخويف وتلقى تهديدات بالقتل (كما وصفها هو في مقال كتبه في ديسمبر ٢٠٠٩) بعد ثلاثة أشهر انتهت بوفاته، وأن أصابع الاتهام موجهة الآن نحو حكومة إقليم كردستان، وأجهزتها الأمنية، أو على أقل تقدير، جماعة تنتمي إلى واحدة من الكيانات الحاكمة».

وتابعت الصحيفة تقول: «كثيرون يقولون أن مثل هذه الاتهامات لا أساس لها من الصحة. إلا أن عثمان اختطف في وضح النهار من جامعته أمام حراس الأمن المسلحين، حيث تمكن المهاجمون من إلقائه في السيارة وساروا به في مدينة أربيل عاصمة الإقليم المزدحمة بالسكان.

وتستطرد الصحيفة البريطانية «مر الخاطفون عبر عدد لا يحصى من نقاط التفتيش الأمنية ومن ثم تم نقله إلى الأراضي المضطربة والمتنازع عليها في الموصل عاصمة محافظة نينوى حيث ألقوا بجثته في الليلة التالية. ربما يكون سردشت قد مات خلال هذه الرحلة، أو في مدينة الموصل نفسها».

وتابعت الجارديان «يجب أن تكون هناك إجابة مقنعة على الأسئلة التي تدور في أذهان معظم الناس الأولى: من الجهة التى تقف وراء المهاجمين والقادرة على خطف سردشت عثمان بسهولة كما فعلوا؟.. وثانيا، لماذا كان يشكو إلى الشرطة وعميد الجامعة عن التهديدات التي تلقاها ولماذا لم يتابعوا الموضوع؟».

وتتساءل الصحيفة، «بعد أن اختطف عثمان ما هي الخطوات التي لم تتخذها السلطات لاعتراض المهاجمين؟ فليس من المنطق ، بعد اختطافه في رحلة لا تقل عن ثلاث ساعات، أن يمر الخاطفون عبر نقاط التفتيش الأمنية، دون جدال فيها ودون رادع».

وتقول الصحيفة «بعبارة أخرى، على حكومة إقليم كردستان أن تتجاوز مجرد إلقاء اللوم على الأفراد أو كيان معين. بالطبع، يمكن أن تكون هناك أسباب أخرى لقتل سردشت عثمان ولكن هذه لا تبدو معقولة جدا».

وختمت الجارديان تقريرها بالقول أن «عملية قتل سردشت عثمان جريئة جدا، وبالتأكيد، في الظروف العادية، كان يتطلب التخطيط الأكثر تطورا والأكثر دهاء والعناصر المدربة بشكل استثنائي من المهاجمين».

١٠ - لو لم أكن عراقيا

لا تقتصر معاناة الصحفيين والإعلاميين العراقيين على المخاطر المحدقة بهم فى كل وقت وفى أى مكان أو عمليات الاختطاف القتل التى تطالهم تحت أى مسمى وبأى تهمة ولأى سبب معقول أو غير معقول إنما تتجاوز القضية ذلك بكثير فهناك أنواع شتى من القتل لا تقف عند حدود الدم والبارود وأساليب القتل الاعتيادية وهى عمليات القتل المعنوى بإغلاق كافة السبل أمام المبدع الحقيقى وترحيل الفرص التى يجب أن يحصل عليها والمناصب التى يجب أن يحتلها إلى من هم دونه كفاءة وثقافة وإخلاصا ليبقى هو أسير الضياع سعيا وراء لقمة العيش .. ربما يعيد حساباته تجاه سادة العهد الجديد ويخفف من حدة انتقاداته ويروج لأفكارهم وأنماط تعاملهم مع الوطن والمواطنين .. هكذا هي الحياة في العراق ، قد تعيش دهرين ولاتحصل على درهمين.وقد تبدع في عوالم مختلفة ثم تقمع من جميع العوالم لتبقى خارج المنظومة

Obeikan.com

تصارع الفضاءات المفتوحة لتصل إلى مستويات من الكآبة والشعور بلا جدوى وتصبح انتقاداتك ومنظوماتك القيمية التى تحاول الترويج لها مثل الصراخ فى وادى ويصبح إبداعك ومحاولاتك للتصحيح ما هى إلا مثل «من يؤذن فى مالطا»، وهو نوع آخر من الاغتيال والقتل للإعلامى الجاد .

بهذه المقدمة أستطيع تلخيص سيرة حياة الصحفي العراقي هادي جلومرعي المبدع في مجال العمل الصحفي والكتابة والإدارة والتحليل السياسي والدفاع عن الحريات الصحفية الذى عايشته لفترة ليست طويلة في البلد الذي عاش ظروفا وحوادث قلما مرت بها شعوب هذه الأرض وعرفت منه كم هو مستعد للتضحية بنفسه أو أن يعيش الكفاف ليوصل رسالة أو ليعمل بجنب الفقراء والمحرومين وحتى الصحفيين الذين يعانون كثيرا وقد مروا بمتاعب لاتوصف منذ الغزو الأمريكي للعراق في أبريل من العام ٢٠٠٣ حتى الآن ..رسالته واضحة هي أن يقدم شيئا مختلفا حتى لو عانى الكثير وخسر كل شيء فالهدف عند هادي جلو مرعي أن ينجح والغاية بحسب وصفه أن يستمتع بحياة سيغادرها مرغما في يوم ما.

عاش طفولة معذبة بعد وفاة والده وسعت والدته لتربيته مع أخيه الأكبر الذي يعمل الآن رئيس مهندسين في إحدى أفضل الشركات العاملة في العراق.

يقول هادي «كانت والدتي تضع الطعام قبالتنا أنا وأخي ولاتشاركنا خوفا من إلا يكفينا وكانت تفرح حين نكتفي من الطعام حتى كبرنا ونجحنا وصرنا مفخرة لها وهي سعيدة بأن النساء حين يلاقينها يسألنها عنا كثيرا ويهنأنها لتقدمنا ونجاحنا».

كان هادى منذ صغره يعشق الصحافة وكان خاله الأصغر جنديا في الجيش العراقي ويأتيه كل يوم بصحف الصباح وقت المساء وظل يجمعها حتى بلغت من العدد ما لم تطقه الأم التي طلبت إليه أن يترك مكانا لهم لأنه ملأ البيت صحفا لايحصر عددها.

يقول هادى «في واحد من أيام الشتاء قررت أن احرق الصحف المخزنة جميعها وكنت حزينا وقد أحرقت الصحف الرياضية الملونة التي كانت توقد نارا بألوان شتى ثم الصحف السياسية التي كانت بالأسود والأبيض..يوم لا أنساه ».

في الجامعة رافقه الفقر والنجاح والتحدي حتى تخرجه ودخوله إلى عالم الصحافة في آخر أيام حكم صدام حسين وكان يتندر بالقول «أنا لست من أزلام صدام وهي تسمية أطلقت على مجموعات من العراقيين كانت تعمل في الحلقات القريبة من النظام لأنني دخلت الصحافة في الدقائق الأخيرة لمباراة الصراع مع الولايات

المتحدة الأمريكية ».

عمل وباجور متدنية في صحف صدام حتى عام ٢٠٠٣ حيث تغيرت الأمور كثيرا بعد هذا العام وتدفقت أسماء وعناوين فضائيات وصحف وإذاعات ومواقع انترنت وصار العمل في الصحافة متاحا للجميع.

يقول هادي « الصحافة في العراق أصبحت كحديقة حيوان يمكن للجميع الدخول إليها والتفرج على الملاه والألعاب والأشجار والحيوانات دون أن يدفع رسوما مالية..كثرة الصحفيين أدت إلى ضياع معالم الصحافة العراقية واحتجنا لوقت طويل حتى نتمكن من تحديد آليات وأطر عمل منظمة تساعدنا في بناء منظومة إعلامية تتيح للصحفيين أن يكونوا أحراراً لا يرضخون للضغوط وان يتوفر لهم العيش الكريم وقبل هذا أن يكونوا على مستوى متوازن من الحرفة والتأهيل وهي عملية كانت شبه مستحيلة لان الصحافة وكثرة وسائل الإعلام وتنوع المولين الذين يريدون من الصحفي أن يكون كبوق الفوزفيلا الإفريقي ليطبل ويزمر لهذا الحزب أو ذاك عدا الحاجة إلى منظمات تعنى بالحريات الصحفية أدت جميعها إلى تعقيد الأمور وإرباك العاملين فى الصحافة العراقية وبالتالي ضياع جهود كبيرة ليتم الوصول إلى حال يطمئن إليه هؤلاء الصحفيون ويشعروا معه أنهم أدوا المهمة ».

وبشق الأنفس وصل هادي وزملاء آخرون معه إلى نقطة مهمة للنجاح..وبعد سبع سنوات كانت القنوات الفضائية على مستوى من الأهلية مكنتها من أن تحتل مكانا بين وسائل إعلام مختلفة وظهرت العشرات من الصحف والإذاعات التي تشبه في توجهاتها السياسية والقومية والدينية مجموعات من العصافير التي تعود إلى أعشاشها عند المغرب لتزقزق بأصوات متنوعة.

وفي هذا الوقت كان مرصد الحريات الصحفية الذي يديره هادى وزملاء آخرون قد حصل على جائزة أفضل منظمة في العالم في مجال الدفاع عن الحريات الصحفية لعام ٢٠٠٣ .

كانت الكتابة هما يوميا لمرعي الذي تفوق ليكون الكاتب الأول في العراق حيث ينشر مقالات لاذعة في صحيفة الزمان المعارضة التي توزع في العراق وأوربا .. كانت معرفة هادي بقضايا السياسة أتاحت له أن يلج عالم التحليل السياسي على مختلف القنوات الفضائية المحلية والعربية والأجنبية عدا عن وكالات الأنباء والصحف والإذاعات.

استطاع هادى أن يؤسس لشكل مختلف من أشكال العمل في الدفاع عن الحريات الصحفية ويقول عن عمله كمدير تنفيذي لمرصد الحريات الصحفية «نحن لسنا مركز شرطة إنما جهة ضغط لنخفف من معاناة الصحفيين الذين قتل منهم

العشرات واضطر آخرون للمغادرة ومنهم من أصيب بإعاقات مختلفة ».

كانت الأجواء في العراق صعبة للغاية طوال السنوات التي تلت الدخول الأمريكي وعمت الفوضى التي أصابت قطاعات من الحياة ولم تستثن الصحفيين الذين اكتووا بنار العنف الطائفي والعرقي ودفعوا أثمان باهظة لعملهم في الصحافة.

وسط كل هذا الركام كان هادي مرعي يعمل بصمت وفي صخب أحيانا حتى صنع لنفسه حضورا لافتا يغبطه عليه الأصدقاء ويحسده الذين كانت الغيرة تنهش نفوسهم وصار يظهر على مختلف وسائل الإعلام ويشارك في مؤتمرات عالمية وسياسية والتقى بمختلف القادة العراقيين والأجانب ووزار العديد من دول العالم.

يتذكر هادي كيف كان العمل في السنين الأولى للدخول الأمريكي وكيف كان يمر قريبا من أماكن الانفجارات التي تهز بغداد يوميا ويرى جثث الناس في الشارع لكنه قرر أن يستمر حتى تنجلي العاصفة أو يموت أو يصاب لكنه بسبع أرواح كما يقول لذلك مرت العاصفة ومازال حيا لم يصب بأذى ويشبه ذلك بحاله في الجامعة عندما كان لا يمتلك المال الكافي ليدرس بشكل جيد ويدفع تكاليف الدراسة الجامعية وبرغم ذلك عاهد نفسه أن ينجح على الدوام لكي لا يضطر إلى دفع تكاليف إضافية.

هادى جلو مرعى الذى يمارس كل أنواع وأشكال العمل الإعلامى مازال يحلم أن يمتلك بيتا مستقلا ويأكل عشاء كاملا ويستقل وسيلة نقل مريحة يستطيع فقط دفع تكاليفها ليتمكن من الانتقال إلى ميادين تطلبه دفاعا عن الصحفيين وتوثيقا لحالات الاعتداء عليهم .. أمنيات شديدة البساطة يمتلك أضعافها من لا يملك موهبة حقيقية بالعراق الجديد وإنما أتاحتها له ولاءات وانتماءات .. بينما يبقى هذا المبدع الذى يمتلك الكثير من الإمكانيات والأدوات عاجزا عن تحقيق تلك المطالب الطبيعية البسيطة التى صارت حلما فى بلد يعوم على بحار من النفط ويستحق من هم دون هادى جلو مرعى أن يتحقق حلمهم فى امتلاك بيت وامتلاك قوت يوم واحد دون عناء .

حلم آخر غير امتلاك بيت وقوت يوم كامل يراوغ هادى هو زيارة مصر التي يقول عنها« أن طباع أهلها تشبه طباع العراقيين فهم طيبون ومحبون وودودون وليس الغدر من شيمتهم ولو لم أكن عراقيا لتمنيت أن أكون مصريا ».

ويضيف « إذا كان معقولا إلا أمتلك بيتا فى بلدى العائمة على بحور النفط فهل يعقل أن ازور دولا عربية عدة وإسلامية وأوربية وحتى كندا وأمريكا ولا أتمكن من زيارة مصر؟؟ !!

١١ - تحية الوداع

وفي نهاية كلّ يوم
ينعب ؛ في خرائب روحنا ؛ البوم
فنمرّ على بنادق القناصة
ونكتب اسمنا على رصاصة

عندما كنت ألملم أوراقى لمغادرة العراق فى مهمتى الأولى يوم ١٨ مارس ٢٠٠٣ جاءنى صوت أطوار بهجت رحمها الله نقيا كما اعتدت خاليا من الوحشة تقول « اعذرنى محمود لأنى لم أحضر للسلام عليك قبل سفرك إلى مصر لأننى لا أجيد تحية الوداع » وعدت إلى مصر دون أودع أطوار تلك الصديقة التى تفيض أصالة ومروءة .. الرائعة فى كل شيىء.. بعد هذا التاريخ بحوالى ثلاث سنوات وعندما كنت أستعد للعودة إلى بغداد لأبدأ مهمة جديدة كان خبر اختطاف وقتل أطوار قد سوّد كل شاشات وصفحات الجرائد فى العالم ليدشن مرحلة من الجنون أطلقت شهوة القتل لتحرق الأخضر واليابس وتجعل الموت مبتزلا من كثرة الاستعمال يلوح فى كل وقت للعابرين أو المرابطين فى انتظار أقدارهم .. إلا أن موت أطوار لم يكن مثل غيره ورحيلها لم يكن رحيلا عاديا .. لم يكن لموتها حرمة ولم يكن لجسدها المثخن بطعنات الفراق والفقد والألم حظوة الدفن الهادئ بعد العثور عليها وقد ثقب جسدها الرصاص ملقاة على قارعة الطريق ليبدأ المشيعون رحلة من الرعب لمواراة الجثمان فى مستقره الأخير .. رحلت أطوار هذه المرة قبل أن تلقى تحية الوداع الأخيرة على أى من أهلها أو أصدقائها حتى أنها لم تستكمل تحضيرات زفافها الذي كان مرتقبا فهى كما كانت تقول دائما « لا تجيد تحية الوداع » .

توفي والد أطوار وهي في الـ ١٦من عمرها ، وكان مديرا لإحدى المدارس في سامراء، لتتكفل بمعيشة أمها وأختها الوحيدة (إيثار)، التي ما تزال طفلة صغيرة بعد.

عملت أطوار بعد تخرجها في الجامعة، في عدة صحف ومجلات ، قبل أن تنتقل إلى قناة «العراق» الفضائية كمذيعة ومقدمة برامج ثقافية، بحكم موهبتها الشعرية التى أفرزت ديوانا يتيما عنوانه « غوايات البنفسج »، وبعد احتلال العراق، عملت فى قناة الجزيرة، قبل أن تنتقل قبل ٣ أسابيع من استشهادها في مكتب قناة «العربية» بالعراق.

اضطرت أطوار للانتقال مع أسرتها الصغيرة من سامراء إلى بغداد من أجل العمل

حيث استقرت بعض الوقت في منطقة العامرية غربى بغداد التى كانت ساحة حرب شديدة الخطورة وبهذا لم تتمكن من العيش طويلا هناك نظرا للاضطرابات الأمنية وانتقلت إلى منطقة الحارثية وسط العاصمة وذلك حفاظا على أمها وشقيقتها الصغيرة، لكنها لم تكن تخشى شيئا فيما يتعلق بحياتها هي بعد أن تحولت شاعرة الحب الرقيقة إلى مقاتلة سلاحها الميكروفون والشاشة الفضية وكانت تتحمس للذهاب إلى أكثر الأماكن خطورة دون أى مبالاة بالتهديدات الجدية المحيطة بحياتها والتى كانت تتلقاها بشكل مباشر وغير مباشر كلما اقتربت من مناطق محظورة وهى كثيرة فى زمن المذبحة .

قبل أن تتوجه أطوار إلى سامراء فى رحلتها الأخيرة إلى الحقيقة والتى كانت خاتمة عملها في حقل الإعلام، ونقطة النهاية لحياتها قامت أطوار بتسجيل حلقات لبرنامج «مهمة خاصة» الذي تبثه قناة «العربية» عن الأوضاع فى كركوك تلك المدينة العائمة على بحيرة من النفط والتى كانت وستظل حلقة مؤجلة فى مسلسل الصراعات الذى لا ينتهى بالعراق ولأن المدينة لم تكن آمنة تماما، كانت تضطر طوال ٣ أيام إلى المبيت في السليمانية العاصمة الإقتصادية والسياحية لإقليم كردستان العراق والتى تحظى بأمان كبير ، والتوجه صباحا إلى كركوك.

كانت أطوار وكل من يعمل فى حقل الإعلام يعلم أن الداخل إلى سامراء غير مقرر له الخروج منها ولهذا طلب منها الزملاء في مكتب العربية ببغداد التروى قبل تنفيذ قرارها بالذهاب إلى هناك خاصة بعد تفجير القبة الذهبية للمرقدين المقدسين لدى الشيعة وما يعنيه ذلك من مخاطر تقود إلى الموت فى أفضل الأحوال لأى إعلامى يحاول سبر أغوار حقيقة ما حدث وهى الحقيقة التى ستظل غائبة طويلا ، ردت عليهم «نحن عراقيون ولابد أن نتحمل مسؤولية نقل صوت العراقيين إلى العالم».

ذهبت أطوار رغم كل التحذيرات لأنه لا شيء فى الدنيا يمكنه أن يعيق باحثا عن الحقيقة من التوجه إلى ساحة المخاطر رغم علمه بأن القتل ربما يكون أقل ثمن للبحث عن تلك الحقيقة خاصة فى بلد مثل العراق فى زمن المذبحة .

لم تستطع أطوار الدخول إلى المدينة المشتعلة ، توقفت على الأبواب وتلت آخر رسالة عبر الشاشة يوم ٢٠٠٦/٢/٢٢ قالت أطوار « ما زالت مشارف المدينة مغلقة نحن الآن عند المدخل الشمالي لمدينة سامراء من خلف، المدخل ما زال مغلقاً وعدد من الأهالي الذين تركوها في الصباح قبل الحادث موجودون معنا الآن، لم يستطيعوا الدخول إلى المدينة، من داخل المدينة الأنباء المتواترة أشارت بالفعل إلى اعتقال عدد من الأشخاص».

وبعد أن ظهرت على شاشة العربية لآخر مرة لتقول كلمتها فيما جـرى ويجـرى بالعراق لم تسلك أطوار طريق العودة كالمعتاد ولكنها سلكت طريقاً آخـر بعـد أن أجبرها قاتلوها على تغيير طريقها المعتاد ليذهبوا بها إلى حيث لن تعود أبدا .. حيث كانت الساعة تشير إلى حوالي ٦:٣٠ مساء بتوقيت بغداد حين علم أعضاء مكتب قناة «العربية» فى بغداد نبأ اختطافها مع زميلين آخرين هما المصور عدنان عبد الله ومهندس الصوت خالد محسن في سامراء التى كانت تتهيأ لتضع العراق علـى أعتـاب حـرب طائفية يتم فيها قتل المواطنين بالوكالة وتتصارع فيها الميليشيات وفرق الموت لكنهـا لا توجه أبداً السلاح إلى بعضها وإنما إلى المواطن العراقى المنكوب حتى احترقت أنامل المودة بين الجميع وصارت الفرقة والدم والكراهية عناوين ثابتة يساق إليها الضحايا بلا ثمـن وبلا سبب معقول بعد أن بات الموت قدراً في بلد صار «مقبرة مفتوحة» فى زمن المذبحة .

بدم بارد تم قتل أطوار بهجت ورفيقيها وإلقاء الجثث على قارعة الطريق رغم كل الإتصالات التى جرت بعد إختطافهم فى محاولة لإنقاذهما من المصـير المحتـوم لأن قرار الإعدام كان قد صدر من جهات لا تقيم وزنا للمشاعر أو البطولة أو الأخـلاق أو أى من القيم التى أصدر حكام زمن المذبحة فرمانا بتغييبها إلى حين .

ولم يتوقف الأمر عند قتل الشهيدة أطوار بدم بارد وإنما تتبـع القتلـة الموكـب الجنائزى بمن فيه ليستمروا فى الإنتقام تارة بالهجوم المسلح على الموكب وتارة أخرة بسيارة مفخخة وضعت على جانب الطريق الذى سلكه المشيعون .

ويقول الزميل الإعلامى ضياء الناصري الذى رافق جنازة أطوار بهجـت أنهـا لم تنتقل لشخصها، ولم تنتهِ المهمة عند مقتلها، بل حتى الجنازة والمعزين فيها لم يكونـوا بمنأىً عن دائرة الخطر، فأكثر من ١٠٠ صحفي تحدوا خطر القتـل أو الخطـف أو عدم العودة ليشاركوا في جنازتها، في يوم حظرٍ كاملٍ للتجوال، لكن يداً غادرةً آثمـةً كانت أيضاً بالمرصاد، وحتى وصول المزيد من العسكريين لم يحسم المعركـة الـتي لم يكونوا فيها هم هدفاً ولا طرفاً بل الصحفيون لوحدهم هم الهدف، وساطاتٌ من أعلى المستويات ومن كافة الأطراف وبعد عدة ساعاتٍ من القتال سمح للجنـازة بسـلوك طريقها إلى مقبرة الكرخ بالعاصمة بغداد ، بعد أن توقفت في منطقة خان ضـاري في أبو غريب على بعد ٢٠ كم غربي بغداد وهى مقر الشيخ حارث الضارى رئـيس هيئـة علماء المسلمين ، لكن الهدنة كانت فقط لتجهيز سيارة مفخخة وضعت على جانـب الطريق للإجهاز على باقي الصحفيين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم اسـتنجدوا مـن شرور القتلة.

«حماة الإعلاميين في ذلك اليوم وحدهم هم من دفعوا الثمن، واستشـهد مـنهم

أربعة فيما جرح ستة، لكن مسيرة الصحافة وحملة راية الإعلام أكملت طريقها، قتل كثيرون من الصحفيين لكن مسيرتهم لم تتوقف، ومن يتهيب صعود الجبال يعيش أبدا الدهر بين الحفر.

في قصيدتها "اعتذار" تنبأت أطوار التى لا تجيد تحية الوداع بالنهاية المفزعة حين قالت.

نبوءة من ألف جرح..
كنت أدري بأنك الموتُ
من ألف جرح..
والسوء آتٍ

لم تكن أطوار الأولى ولا الأخيرة من مذيعى قناة العربية التى يصدر القرار بتغييبها ويتم تنفيذه بدقة متناهية حيث سار على طريق الموت قبلها الشاب الطيب علي الخطيب وكذلك علي عبد العزيز على يد القوات الأمريكية ثم المصور مازن الطميزي ، كما تعرض كاظم جواد لمحاولة اغتيال وصل فيها إلى أعتاب الموت وكما يقول دائما « عايشت لحظات الموت بكل تفاصيلها »، ورغم ما أصيب به من عجز جسدى إلا أنه هذا العجز لم يتسلل إلى إرادته ولم يطفىء وهج وجهه المشرق الذى يطالعنا به عبر شاشة العربية من وقت إلى آخر ، كما تعرض مكتب القناة في بغداد لعمليتى تفجير قضى خلالهما عدد من العاملين في المكتب كان آخرهما التفجير الذى أثار جدلا واسعا فى يوليو عام ٢٠١٠ عندما تمكن انتحارى يستقل سيارة مفخخة من اختراق كل الحواجز والتحصينات وأن ينفذ من الإجراءات الأمنية المشددة ونقاط التفتيش المتحفزة دائما التى تحيط بمقر مكتب العربية فى منطقة الحارثية بجوار منزل نائب رئيس الوزراء العراقى السابق الدكتور سلام الزوبعى الذى يحظى بحماية فائقة ليفجر سيارته المحملة بحوالى ١٣٠ كم من المواد شديدة الانفجار ويدمر المبنى وعدد من المبانى المجاورة ليكرس مفهوما ساد فى زمن المذبحة وهو أنه « لا حصانة لأحد » بعد أن حل رصاص الغزو والعتمة محل نخيل وبنفسج العراق .

١٢ - البطولة الزائفة

فى الوقت الذى كان يحتفل الرئيس الأمريكى جورج بوش بما اعتبره الانتصار الأخير لإدارته قبل أن تحمل عصاها وترحل حمل له هذا الاحتفال مفاجأة من العيار

الثقيل تناقلتها وسائل الإعلام فى العالم كمشهد كوميدى لم ولن يتكرر.

كانت المفاجأة هى فردتى حذاء قذفهما صحفى عراقى فى وجه الرئيس بوش الذي نجح فى تفاديهما مع عبارات حادة قال الصحفى أنها قبلة الوداع لبوش المنتصر حيث كانت تلك الحادثة بالغة الدلالة على شعور عراقى يحمله قطاع كبير يمثله هذا الصحفى بما تسبب فيه بوش من آلام للشعب العراقى نتيجة الاحتلال رغم أن بوش اعتبر هذا الحادث الطريف المحرج تحولا يكرس لمبدأ يرى أنه أرساه فى العراق وهو الديمقراطية باعتبار أن هذا الصحفى فعل ذلك دون أن يخشى على حياته كما كان يحدث ابان عهد صدام حسين وهو أن يكون جزاؤه القتل والتنكيل مع أفراد عائلته وربما عشيرته .

تم تقديم الصحفى إلى المحاكمة وهو ما اعتبره أيضا رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى سلوكا ديمقراطيا فى العراق الجديد الذى تتم فيه محاسبة من يخطىء على قدر الخطأ دون التجاوز على حياته .

الا أن هذا الحادث والطريقة التى جرى التعامل مع منفذه إعلاميا وشعبيا شابها الكثير من اللغط وربما تجاوزت حدود الفعل نفسه ومنحته ما لا يستحق .. كرست صاحبه كبطل قومى ألحق العار بأمريكا الإمبريالية باعتبار أنه انتصر لضحايا الاحتلال الأمريكى بالعراق .. ورد ضربات أمريكا الإمبريالية للعالم الإسلامى والعربى .. كما اعتبر آخرون هذا التصرف ردا على مجازر ترتكبها إسرائيل يوميا بحق الفلسطينيين .. وذهب آخرون إلى أحقية هذا الصحفى فى قيادة وحكم بلده باعتباره بطلا وقف ضد رئيس أكبر دولة فى العالم .. بينما رقص آخرون فرحاً وفخرا ببطل العرب رغم أن ما ارتكبه فى العرف العشائرى والصحفى يعتبر سلوكا مخلا بالأخلاق ولا يجب ابدا اعتباره مفخرة وطنية وقومية يحتفل لها الشارع العربي.

ورأى أغلب الصحفيين الذين التقيتهم واستطلعت رأيهم فيما حدث أن ما قام به الصحفي ، مراسل الفضائية البغدادية، في المؤتمر الصحفي الذي حضره الرئيس الأمريكي بوش، ورئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، مساء الأحد ٢٠٠٨/١٢/١٤ ، برمي الحذاء نحوهما، هو سلوك لا تبرير له .. فأخلاق الحذاء أو «القنادر» بلهجة العراقيين» لا يجب أن تكون جزءً من السلوك الذى يجب انتهاجه في السياسة والثقافة العراقية.

ورأى صحفيون عراقيون أن سلوك الحذاء ليس له جذور في التراث السياسي الحديث، وإنما هى سلوكيات فردية بدأت في العهد الملكي عندما ردد الشيوعيون

أهزوجة (نوري السعيد القندرة، صالح جبر قيطانه)، وتعني أن نوري السعيد حذاء وصالح جبر رباطها مروراً بنعل أبي تحسين وهو يضرب به رأس تمثال صدام حسين بعد سقوطه في ساحة الفردوس في بغداد يوم ٢٠٠٣/٤/٩ و كذلك عندما استقبل أتباع التيار الصدري رئيس الوزراء العراقي الأسبق الدكتور أياد علاوي بوابل من الأحذية عند زيارته للضريح الحيدري في النجف الأشرف عام ٢٠٠٥ بعد أن خاض هجوما ضد جيش المهدى الذى احتمى بالضريح المقدس مدعوما بالقوات الأمريكية ثم أكد هذا السلوك الدكتور محمود المشهداني، رئيس البرلمان العراقي، عندما علق على قول لم يعجبه من أحد النواب وتحت قبة البرلمان الذى كان يرأسه وأجبرته القوى السياسية على الاستقالة من منصبه بأنه ليس لديه إلا « القندره» للرد .

والمثير فى الأمر أن الصحفى المغمور يصبح أشهر من نار على علَمْ في ساعات قلائل، وبطلاً من أبطال العروبة نظرا لما ناله من إعجاب عربي وتأييد جماهيري، وحتى في أوساط بعض المثقفين مع الأسف رغم أنه سلوك فردى .

ويقول الكاتب عزيز الحاج في مقال له بعنوان : «العراق هو الذي أهين، لا شخص بوش» / هذا السلوك أضر بسمعة الشعب العراقي ووجه إهانة إلى الدولة العراقية أكثر مما أساء إلى الرئيس بوش الضيف على العراق والعرب يتبجحون بإكرام الضيف،/الطريف والغريب فى الأمر أنه بعد وقوع الحادث، بثت فضائية البغدادية التي يعمل لصالحها هذا الصحفي بياناً «ثورياً» أعادت قراءته عدة مرات، مصحوباً بأناشيد «ثورية» لتلهب حماس الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج، والأغرب من ذلك أن اعتبر بيان الفضائية هذه الممارسة مظهراً من مظاهر حرية التعبير، ليرافقه سيل عارم من المقالات لكتاب عراقيين وعرب، فرحين جذلين، وشامتين، يصفون هذا الصحفي بالبطل، وأن ما قام به يعد نصراً مبينا للأمة العربية والإسلامية .

إضافة إلى ذلك خرجت مظاهرات صاخبة في بغداد من التيار الصدري يتقدمها العشرات من المعممين، رافعين الأحذية كرمز نضالي لهم تأييداً «للبطل» الصحفي .. كما تواترت أخبار تفيد بتبرع عدد من الأثرياء العرب بملايين الدولارات لهذا الصحفي، وعائلته .

ولعل السبب الرئيسى فى اعتراضى على هذا السلوك وهو ما وافقنى فيه المئات من الصحفيين العراقيين هو أنه في جميع الأعراف تعتبر مهمة الصحفي هي البحث عن الحقيقة ونشرها على الناس، وأداته الكلمة وليس الحذاء أيا كان من وجهت له الضربة وهو ما ذهب إليه الكاتب المخضرم مالوم أبو رغيف عندما تساءل فى مقال له «هل أصبح الحذاء كلمة؟».

وأود هنا أن أشير إلى كلمة هامة قالها الرئيس المنصرم بوش تعليقا على الواقعة عندما قال (هذا دليل الحرية) أى أن الحذاء الطائش الذى منح صاحبه بطولة وهمية منح لبوش الفخر ليقول أنه منح العراقيين الحرية وكلنا يعلم كم دفع العراقيون من ثمن لحرية بوش .

ويقول الكاتب الساخر، سامي البحيري في مقال له في موقع صحيفة إيلاف الإليكترونية واسعة الانتشار (أنا أسأل المواطنين العراقيين الكرام والذين عاصروا «العهد الذهبى» لصدام حسين، تخيلوا معى أن الرئيس العراقى كان يدير مؤتمرا صحفيا بحضور الرئيس الروسى «بوتين» وقام صحفي بإلقاء فردتي حذاء على الرئيس بوتين، فماذا كان سيفعل به صدام حسين؟ والجواب معروف.) من هنا نعرف معنى الحكمة القائلة (من أمن العقاب أساء الأدب).

حقائق واقعة الحذاء

رغم أننى لا تربطنى أى علاقة بالحادث من قريب أو بعيد إلا أن فضولي الصحفى جعلنى أتقصى حقيقة ما حدث من عدة مصادر سواء مقربين من بطل واقعة الحذاء أو صحفيين حضروا المؤتمر الصحفى الذى شهد الواقعة أو غير ذلك من المصادر التى أكدت فى مجملها أن فى الواقعة شيىء غامض فسره كم الأكاذيب التى عاصرت الواقعة حول تعرض الصحفى صاحب الحذاء إلى ضرب مميت بالقضبان الحديدية وكابلات الكهرباء وغير ذلك من أدوات التعذيب التى لو صحت لاستمر أثرها بادياً على جسده سنوات طويلة ولكانت صحته قد تأثرت تأثيراً قد يكون مدمراً بسببها .

قال لي صديقى خالد الأنصارى الذى يعمل لحساب وكالة رويترز أنه حضر بعض جلسات التحقيق مع راشق الحذاء كانت إحداها الجلسة التى عقدت يوم الخميس ١٩ فبراير عام ٢٠٠٩ والتى واجه فيها القاضى الصحفي العراقي الذي رشق بوش بفردتي حذائه بقرص مدمج يتدرب فيه على إلقاء الحذاء وهو ما يؤشر إلى وجود جهة ما تقف وراء هذا السلوك بل وتدعمه إلا أن راشق الحذاء اعترف بأنه صور نفسه وهو يتدرب على رشق بوش بالحذاء وإن ابتسامة بوش « الباردة» أثارت حنقه.

وقال أمام لجنة مكونة من ثلاثة قضاة و٢٥ محاميا توافدوا للدفاع عنه إنه اعترف بتصوير شريط الفيديو لتدربه على قذف الحذاء أثناء التحقيق معه بعد اعتقاله في المؤتمر الصحفي ببغداد أمام حرس رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بعدما تعرض للضرب وبعدما تعرض جسده لصدمات بالكهرباء. وأشار إلى أنه كان يخطط في

الأصل إلى قذف بوش بالحذاء أثناء مؤتمر صحفي في العاصمة الأردنية عمان .. لكنه أصر على أنه لم يخطط للهجوم على بوش فى تلك المرة إلا أن المتتبع لوقائع يوم «واقعة الحذاء» يمكنه أن يدرك بوضوح أن الأمر تم التخطيط له بعناية حيث حضر راشق الحذاء متأخرا عن موعد دخول الصحفيين إلى قاعة المؤتمر الصحفى وتمكن من الدخول إلى القاعة رغم أنه لم يكن مسجلا .. حيث كان لكل فضائية مراسل ومصور يمكنهما الدخول وتغطية المؤتمر الصحفى لرئيس الولايات المتحدة وبالفعل كان المصور والصحفى اللذين تم تكليفهما من قبل الفضائية التى يعمل بها حاضرين فى القاعة ورغم ذلك تمكن من الدخول وهو ما يؤشر إلى وجود من سهل له الالتحاق بكوكبة الإعلاميين الذين حضروا المؤتمر الصحفى .

ولعلنا نذكر كيف برز اسم راشق الحذاء للمرة الأولى عندما تعرض لعملية اختطاف عجيبة على أيدي مجهولين أثناء توجهه إلى مقر عمله في السادس عشر من نوفمبر عام ٢٠٠٧ غير أنه وبعد ثلاثة أيام من الاختطاف، أطلق الخاطفون سراحه دون مقابل مادي أو فدية أو حتى دون أن يتعرض لأى إيذاء رغم أن تلك الفترة من زمن المذبحة كانت لا تترك مجالا للرحمة لمن يتم اختطافه خاصة إذا كان صحفيا وهو ما جعل الكثير من زملائه الإعلاميين حتى داخل الفضائية التى يعمل بها يؤكدون أن عملية الاختطاف هذه كانت مفبركة وصاروا يتهامسون فيما بينهم عن العملية الوهمية التى جلبت المزيد من الشهرة للصحفى المغمور .. حيث خصصت محطة «البغدادية» التي يعمل بها خلال عملية اختطافه العجيبة برنامجاً من ساعتين فى ١٨نوفمبر، وفق موقع مراسلون بلا حدود.

ورغم البطولة التى أظهرها راشق الحذاء أمام الكاميرات وما خرج من تصريحات نارية عبر أشقائه الذين برزوا كنجوم ومصادر لكبريات الصحف والفضائيات واكبها حملة شبه منظمة لصناعة بطل وهمى أعلن راشق الحذاء أسفه بعد حوالى عام على الواقعة لكون الشهرة التي اكتسبها منذ أن رشق الرئيس الأمريكي جورج بوش بالحذاء لم تجلب له المال والغنى كما كان يتوقع، بل بقيت أحواله المادية على ما كانت عليه، موجهاً اللوم لوسائل الإعلام التي اتهمها بـ«تشجيعه».

وقال في حديثه لصحيفة «الأوبزرفر» البريطانية نشر يوم الأحد ٢٠-١٢-٢٠٠٩، أن أسفه الوحيد بعد أن أمضى ٩ أشهر في السجن هو «بقاؤه فقيراً» .. وقال «إنني ألوم وسائل الإعلام لأنها قالت إني سأصبح غنياً لفعل ما فعلته، وسأصبح مليونيراً».

وأضاف أن «كل وعود الهدايا التي سمعتها عندما كنت في السجن كانت فارغة تماماً. والهدية الوحيدة التي تلقيتها منذ الإفراج عني هي حذاء ذهبي أعطي لي

كجائزة «رجل العام» من التلفزيون الكندي».

وأكد إنه يسعى الآن لجمع أموال لفتح دار للأيتام، التي ستتكفل أيضاً بتلبية احتياجات النساء اللواتي ترمّلن نتيجة الحرب وأنه سيعود إلى بلاده عندما يجد الدعم لمؤسسته لمساعدة الأيتام والأرامل كما كان قد وعد لأن الكل ينتظره .

• حذاء بحذاء

وسط تجمع نظمه البعثيون في باريس رشق الصحفي العراقي سيف الخياط اللاجئ السياسي في عاصمة النور راشق الحذاء الذى كان يقوم بجولة أوربية وعربية شملت العاصمة الفرنسية بالحذاء ، وكان منتظر راشق الأحذية يحاضر في نادي الصحافة العربية في باريس فقال له الخياط بصوت «لقد جلبت العار للصحفيين العراقيين والعرب وجعلتنا نكسر أقلامنا ونرفع الأحذية، وان كانت لديك نوايا صادقة كان الأولى أن ترشق نوري المالكي رئيس الوزراء العراقي الذي يعمل على عودة الاستبداد وليس جورج بوش ».

وأضاف الخياط «أن العراق رسميا وقانونيا ذو سلطة وسيادة حسب قرارات مجلس الأمن وان الفشل الذي يمر به العراق هو بسبب قادته السياسيين وليس نتيجة عملية حرب العراق التي قادتها الولايات المتحدة».

ومع اعتراضنا الشديد على ثقافة الحذاء التى تعد مظهراً بعيداً كل البعد عن التحضر والحوار الذى أمر به ديننا الحنيف .. إلا أن القضية الرئيسية هى سوء التقدير والفهم لبعض السلوكيات التى تصنع أبطالا وهميين سرعان ما يتواروا عن الأنظار ويسقطوا فى زوايا النسيان عندما تنكشف زيف الادعاءات .. فرغم مرور حوالي عامين على واقعة الحذاء لم يحدث ما روج له راشق الحذاء بشأن وجود مخططات من جانب جهاز المخابرات الأمريكى « سى آى إيه» وغيره من الأجهزة الإمبريالية لتصفيته وتسقيطه سياسيا واجتماعيا لأنه سقط فعلا من الذاكرة ليذهب إلى زوايا النسيان وظل رمزا فكاهياً يتندر به الناس عند ذكر الواقعة لأنه لا يمكن أن يستمر رمزا للبطولة كما صوره البعض لأن السلوك الذى جاء به وما تلاه من توصيفات خيالية مردها حالة الإحباط العربى العام لا يعدو أن يكون بطولة زائفة ترجمت فى ألعاب « الفيديو جيم» التى يستمتع الأطفال بلعبها كما يستمتع الناس بالضحك عند ذكر الواقعة «الفضيحة» .